(٧٥) سورة القيامة مكية وآياتها أربعون

● **سورة** القيامة مكية ، وهي تعالج موضوع « البعث والجزاء » الذي هو احد اركان الإيمان ، وتركز بوجه خاص على القيامة وأهوالها ، والساعة وشدائدها . وعن حالة الإنسان عند الاحتضار ، وما يلقاه الكافر في الآخرة من المصاعب والمتاعب ، ولذلك سميت سورة القيامة .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة ، على أن البعث حقٌ لا ريب فيه ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة . أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه؟ بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ .

● **ثم ذكرت** طرفاً من علامات ذلك اليوم المهول ، الذي يُخسف فيه القمر ، ويتحير البصر ، ويجمع فيه الخلائق والبشر للحساب والجزاء ﴿ فإذا برق البصرُ . وخَسَفَ القمرُ . وجُمِعَ الشمسُ والقمرُ . يقولُ الإنسانُ يومئذٍ أينَ المفرُّ ؟ كلا لا وَزَرَ . إلى ربكِ يومئذٍ المستقَرُّ﴾

● **وتحدثت** السورة عن اهتمام الرسول بضبط القرآن عند تلاوة جبريل عليه ، فقد كان السلام يجهد نفسه في متابعة جبريل ، ويحرك لسانه معه ليسرع في حفظ ما يتلوه ، فأمره تعالى أن يستمع للتلاوة ولا يحرك لسانه به ﴿ لا تُحركْ به لِسَانَكَ لتعجلَ بهِ . إن علينا جمعه .

وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾

● **وذكرت** السورة انقسام الناس في الآخرة إلى فريقين : سعداء وأشقياء ، فالسعداء وجوههم مضيئة تتلألأ بالأنوار ، ينظرون إلى الربّ جل وعلا ، والأشقياء وجوههم مظلمة قاتمة يعلوها الذل والقترة ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضرة . إلى ربها ناظرة . ووجوهٌ يومئذٍ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ .

● **ثم تحدثت** السورة عن حال المرء وقت الاحتضار ، حيث تكون الأهوال والشدائد ، ويلقي الإنسان من الكرب والضيق ما لم يكن في الحسبان ﴿كلا إذا بلغتِ التراقي . وقيل من راق ؟ وظنَّ أنه الفراق . والتفت الساقُ بالساق . إلى ربك يومئذٍ المساق . فلا صدَّق ولا صلَّى . ولكنْ كذَّب وتولَّى . ثم ذهب إلى أهله يتمطى ..﴾

● **وختمت** السورة الكريمة بإثبات الحشر والمعاد بالأدلة والبراهين العقلية ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سُدَى ؟ ألم يك نطفةً من منيٍ يُمنى ؟ ثم كان علقةً فخلق فسوَّى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادرٍ على أن يحيي الموتى ؟﴾ .

سورة القيامة

[٩٩١] ك.. وأخرج البخاري عن ابن عباس قال: كان رسول الله [ﷺ] إذا نزل عليه الوحي يحرك به لسانه يريد أن يحفظه فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾(١) الآية.

[٩٩٢] وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾(٢) قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم يخبركم ابن أبي كبشة أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدهم أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحى الله إلى رسوله أن يأتي أبا جهل فيقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾(٣).

[٩٩٣] ك.. وأخرج النسائي عن سعيد بن جبير أنه سأل ابن عباس عن قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾(٤) أشيء قاله رسول الله [ﷺ] من قبل نفسه أم أمره الله به؟ قال: بل قاله من قبل نفسه ثم أنزله الله.

* * *

---

[٩٩١] (١) سورة القيامة: الآية (١٦).
[٩٢٢] (٢) سورة المدثر: الآية (٣٠).
(٣) سورة القيامة: الآية (٣٤و٣٥).
[٩٩٣] (٤) سورة القيامة: الآية (٣٤).

سورة القيامة

اربعون آية مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: المفسرون ذكروا في لفظة (لاَ) في قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ ثلاثة أوجه: الأول: أنها صلة زائدة والمعنى: أقسم بيوم القيامة ونظيره ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[الحديد: ٢٩] وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾[الأعراف: ١٢] ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٥٩] وهذا القول عندي ضعيف من وجوه: أولها: أن تجويز هذا يفضي إلى الطعن في القرآن، لأن على هذا التقدير يجوز جعل النفي إثباتًا والإثبات نفيًا وتجويزه يفضي إلى أن لا يبقى الاعتماد على إثباته ولا على نفيه، وثانيها: أن هذا الحرف إنما يزاد في وسط الكلام لا في أوله، فإن قيل: فالكلام عليه من وجهين: الأول: لا نسلم أنها إنما تزاد في وسط الكلام، ألا ترى إلى أمرئ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته وهي قوله:

لاَ وَأَبِيكِ ابْنَةَ الْعَامِرِيِّ لاَ يَدَّعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفِرّْ[1]

الثاني: هب أن هذا الحرف لا يزاد في أول الكلام إلا أن القرآن كله كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض، والدليل عليه أنه قد يذكر الشيء في سورة ثم يجيء جوابه في سورة أخرى كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[الحجر: ٦] ثم جاء جوابه في سورة أخرى وهو قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[القلم: ٢] وإذا كان كذلك، كان أول هذه السورة جاريًا مجرى وسط الكلام، والجواب عن الأول: أن قوله لا وأبيك قسم عن النفي، وقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ نفي للقسم، فتشبيه أحدهما بالآخر غير جائز، وإنما قلنا: إن قوله لا أقسم نفي للقسم، لأنه على وزان قولنا لا أقتل لا أضرب، لا أنصر، ومعلوم أن ذلك يفيد النفي. والدليل عليه أنه لو حلف لا يقسم كان البر بترك القسم، والحنث بفعل القسم، فظهر أن البيت المذكور، ليس من هذا الباب وعن الثاني: أن القرآن كالسورة الواحدة في عدم التناقض، فإما في أن يقرن بكل آية ما قرن بالآية الأخرى فذلك غير جائز، لأنه يلزم جواز أن يقرن بكل إثبات حرف النفي في سائر الآيات، وذلك يقتضي انقلاب كل إثبات نفيًا وانقلاب كل نفي إثباتًا، وإنه لا يجوز، وثالثها: أن

(١) هذا البيت لامرئ القيس وتقدمت ترجمته.

المراد من قولنا: لا صلة أنه لغو باطل، يجب طرحه وإسقاطه حتى ينتظم الكلام، ومعلوم أن وصف كلام الله تعالى بذلك لا يجوز، القول الثاني للمفسرين في هذه الآية، ما نقل عن الحسن أنه قرأ (لَأُقْسِمُ) على أن اللام للابتداء، وأقسم خبر مبتدأ محذوف، معناه لأنا أقسم ويعضده أنه في مصحف عثمان بغير ألف واتفقوا في قوله، ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ على لا أقسم، قال الحسن معنى الآية أني أقسم بيوم القيامة لشرفها، ولا أقسم بالنفس اللوامة لخساستها، وطعن أبو عبيدة في هذه القراءة وقال لو كان المراد هذا لقال: لأقسمن لأن العرب لا تقول: لأفعل كذا، وإنما يقولون: لأفعلن كذا، إلاأن الواحدي حكى جواز ذلك عن سيبويه والفراء، واعلم أن هذا الوجه أيضًا ضعيف، لأن هذه القراءة شاذة، فهب أن هذا الشاذ استمر، فما الوجه في القراءة المشهورة المتواترة؟ ولا يمكن دفعها وإلا لكان ذلك قدحًا فيما ثبت بالتواتر، وأيضًا فلا بد من إضمار قسم آخر لتكون هذه اللام جوابًا عنه، فيصير التقدير: والله لأقسم بيوم القيامة، فيكون ذلك قسمًا على قسم، وإنه ركيك ولأنه يفضي إلى التسلسل، القول الثالث: أن لفظة لا وردت للنفي، ثم هاهنا احتمالان الأول: أنها وردت نفيًا لكلام ذكر قبل القسم، كأنهم أنكروا البعث فقيل: لا ليس الأمر على ما ذكرتم، ثم قيل أقسم بيوم القيامة، وهذا أيضًا فيه إشكال، لأن إعادة حرف النفي مرة أخرى في قوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ مع أن المراد ما ذكروه تقدح في فصاحة الكلام.

الاحتمال الثاني: أن لا هاهنا لنفي القسم كأنه قال: لا أقسم عليكم بذلك اليوم وتلك النفس ولكني أسألك غير مقسم أتحسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت فإن كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك، وهذا القول اختيار أبي مسلم وهو الأصح، ويمكن تقدير هذا القول على وجوه أخر، أحدها: كأنه تعالى يقول: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب فإن هذا المطلوب أعظم وأجل من أن يقسم عليه بهذه الأشياء ويكون الغرض من هذا الكلام تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه، وثانيها: كأنه تعالى يقول: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب، فإن إثباته أظهر وأجلى وأقوى وأحرى، من أن يحاول إثباته بمثل هذا القسم، ثم قال بعده: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣] أي كيف خطر بباله هذا الخاطر الفاسد مع ظهور فساده، وثالثها: أن يكون الغرض منه الاستفهام على سبيل الإنكار والتقدير ألا أقسم بيوم القيامة. ألا أقسم بالنفس اللوامة على أن الحشر والنشر حق.

المسألة الثانية: ذكروا في النفس اللوامة وجوهًا: أحدها: قال ابن عباس: إن كل نفس فإنها تلوم نفسها يوم القيامة سواء كانت برة أو فاجرة، أما البرة فلأجل أنها لِمَ لم تزد على طاعتها، وأما الفاجرة فلأجل أنها لِمَ لم تشتغل بالتقوى، وطعن بعضهم في هذا الوجه من وجوه:

الأول: أن من يستحق الثواب لا يجوز أن يلوم نفسه على ترك الزيادة، لأنه لو جاز منه لوم نفسه على ذلك لجاز من غيره أن يلومها عليه.

الثاني: أن الإنسان إنما يلوم نفسه عند الضجارة وضيق القلب، وذلك لا يليق بأهل الجنة حال كونهم في الجنة، ولأن المكلف يعلم أنه لا مقدار من الطاعة إلا ويمكن الإتيان بما هو أزيد منه، فلو كان ذلك موجبًا للوم لامتنع الانفكاك عنه وما كان كذلك لا يكون مطلوب الحصول، ولا يلام على ترك تحصيله، والجواب عن الكل أن يحمل اللوم على تمني الزيادة، وحينئذ تسقط هذه الأسئلة، وثانيها: أن النفس اللوامة هي النفوس المتقية التي تلوم النفس العاصية يوم القيامة بسبب أنها تركت التقوى.

ثالثها: أنها هي النفوس الشريفة التي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الطاعة، وعن الحسن أن المؤمن لا تراه إلا لائمًا نفسه، وأما الجاهل فإنه يكون راضيًا بما هو فيه من الأحوال الخسيسة.

ورابعها: أنها نفس آدم لم تزل تلوم على فعلها الذي خرجت به من الجنة.

وخامسها: المراد نفوس الأشقياء حين شاهدت أحوال القيامة وأهوالها، فإنها تلوم نفسها على ما صدر عنها من المعاصي، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ [الزمر: ٥٦].

وسادسها: أن الإنسان خلق ملولاً، فأي شيء طلبه إذا وجده مله، فحينئذ يلوم نفسه على أني لم طلبته، فلكثرة هذا العمل سمي بالنفس اللوامة، ونظيره قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩- ٢١] واعلم أن قوله لوامة، ينبئ عن التكرار والإعادة، وكذا القول في لوَّام وعذَّاب وضرَّار.

المسألة الثالثة: اعلم أن في الآية إشكالات أحدها: ما المناسبة بين القيامة وبين النفس اللوامة، حتى جمع الله بينهما في القسم؟ وثانيها: المقسم عليه، هو وقوع القيامة فيصير حاصله أنه تعالى أقسم بوقوع القيامة، وثالثها: لِمَ قال: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ولم يقل: والقيامة، كما قال في سائر السور: والطور والذاريات والضحى؟ والجواب: عن الأول من وجوه: أحدها: أن أحوال القيامة عجيبة جدًا، ثم المقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النفوس اللوامة. أعني سعادتها وشقاوتها، فقد حصل بين القيامة والنفوس اللوامة هذه المناسبة الشديدة، وثانيها: أن القسم بالنفس اللوامة تنبيه على عجائب أحوال النفس على ما قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ» ومن أحوالها العجيبة قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ إلى قوله ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وقال قائلون: القسم وقع بالنفس اللوامة على معنى التعظيم لها من حيث إنها أبدًا تستحقر فعلها وجدها واجتهادها في طاعة الله، وقال آخرون: إنه تعالى أقسم بالقيامة، ولم يقسم بالنفس اللوامة، وهذا على القراءة الشاذة التي رويناها عن الحسن، فكأنه تعالى قال: أقسم بيوم القيامة تعظيمًا لها، ولا أقسم بالنفس اللوامة تحقيرًا لها، لأن النفس اللوامة إما أن تكون كافرة بالقيامة مع عظم أمرها، وإما أن تكون فاسقة مقصرة في العمل، وعلى التقديرين فإنها تكون مستحقرة.

وأما السؤال الثاني: فالجواب عنه ما ذكرنا أن المحققين قالوا: القسم بهذه الأشياء قسم بربها وخالقها في الحقيقة، فكأنه قيل: أقسم برب القيامة على وقوع يوم القيامة.

وأما السؤال الثالث: فجوابه أنه حيث أقسم قال: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ [الطور: ١]، ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ [الذاريات: ١] وأما هاهنا فإنه نفى كونه تعالى مقسمًا بهذه الأشياء، فزال السؤال، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في جواب القسم وجوهًا: أحدها: وهو قول الجمهور أنه محذوف على تقدير: ليبعثن ويدل عليه ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾، وثانيها: قال الحسن: وقع القسم على قوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ﴾، وثالثها: وهو أقرب أن هذا ليس بقسم بل هو نفي للقسم فلا يحتاج إلى الجواب، فكأنه تعالى يقول: لا أقسم بكذا وكذا على شيء، ولكني أسألك أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه.

المسألة الثانية: المشهور أن المراد من الإنسان إنسان معين، روي أن عدي بن أبي ربيعة ختن الأخنس بن شريق، وهما اللذان كان رسول الله ﷺ يقول فيهما: «اللَّهُمَّ اكْفِنِي شَرَّ جَارَيِ السُّوءِ»[1] قال لرسول الله ﷺ: يا محمد حدثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمره؟ فأخبره رسول الله ﷺ، فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أؤمن بك كيف يجمع الله العظام؟ فنزلت هذه الآية، وقال ابن عباس: يريد بالإنسان هاهنا أبا جهل، وقال جمع من الأصوليين: بل المراد بالإنسان المكذب بالبعث على الإطلاق.

المسألة الثالثة: قرأ قتادة: (أَلَّن تُجْمَعَ عِظَامُه) على البناء للمفعول، والمعنى أن الكافر ظن أن العظام بعد تفرقها وصيرورتها ترابًا واختلاط تلك الأجزاء بغيرها وبعدما نسفتها الرياح وطيرتها في أباعد الأرض لا يمكن جمعها مرة أخرى وقال تعالى في جوابه: ﴿بَلَىٰ﴾ فهذه الكلمة أوجبت ما بعد النفي وهو الجمع، فكأنه قيل: بل يجمعها، وفي قوله: ﴿قَٰدِرِينَ﴾ وجهان: الأول: وهو المشهور أنه حال من الضمير في نجمع أي نجمع العظام قادرين على تأليف جميعها وإعادتها إلى التركيب الأول وهذا الوجه عندي فيه إشكال وهو أن الحال إنما يحسن ذكره إذا أمكن وقوع ذلك الأمر لا على تلك الحالة تقول: رأيت زيدًا راكبًا لأنه يمكن أن ترى زيدًا غير راكب، وهاهنا كونه تعالى جامعًا للعظام يستحيل وقوعه إلا مع كونه قادرًا، فكان جعله حالاً جاريًا مجرى بيان الواضحات، وإنه غير جائز، والثاني: أن تقدير الآية كنا قادرين على أن نسوي بنانه في الابتداء فوجب أن نبقي قادرين على تلك التسوية في الانتهاء، وقرئ: (قادرون) أي

---

(١) لم أجده.

ونحن قادرون، وفي قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ وجوه: أحدها: أنه نبه بالبنان على بقية الأعضاء، أي نقدر على أن نسوي بنانه بعد صيرورته ترابًا كما كان، وتحقيقه أن من قدر على الشيء في الابتداء قدر أيضًا عليه في الإعادة وإنما خص البنان بالذكر لأنه آخر ما يتم خلقه، فكأنه قيل: نقدر على ضم سلاماته على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أولاً من غير نقصان ولا تفاوت، فكيف القول في كبار العظام، وثانيها: بلى قادرين على أن نسوي بنانه أي نجعلها مع كفه صفيحة مستوية لا شقوق فيها كخف البعير، فيعدم الارتفاق بالأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة وسائر الأعمال اللطيفة التي يستعان عليها بالأصابع، والقول الأول أقرب إلى الصواب.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾

اعلم أن قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ﴾ عطف على ﴿أَيَحْسَبُ﴾ [القيامة: ٣] فيجوز فيه أن يكون أيضًا استفهامًا كأنه استفهم عن شيء ثم استفهم عن شيء آخر، ويجوز أن يكون إيجابًا كأنه استفهم أولاً ثم أتى بهذا الإخبار ثانيًا. وقوله: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ فيه قولان: الأول: أي ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه، وعن سعيد بن جبير: يقدم الذنب ويؤخر التوبة، يقول: سوف أتوب حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوأ أعماله، القول الثاني: ليفجر أمامه، أي ليكذب بما أمامه من البعث والحساب، لأن من كذب حقًا كان كاذبًا وفاجرًا، والدليل عليه قوله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فالمعنى يريد الإنسان ليفجر أمامه، أي ليكذب بيوم القيامة وهو أمامه، فهو يسأل أيان يوم القيامة، متى يكون ذلك تكذيبًا له.

ثم قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يسأل سؤال مستنعت مستبعد لقيام الساعة، في قوله: أيان يوم القيامة، ونظيره ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس: ٤٨] واعلم أن إنكار البعث تارة يتولد من الشبهة وأخرى من الشهوة، أما من الشبهة فهو الذي حكاه الله تعالى بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣] وتقريره أن الإنسان هو هذا البدن فإذا مات تفرقت أجزاء البدن واختلطت تلك الأجزاء بسائر أجزاء التراب وتفرقت في مشارق الأرض ومغاربها فكان تمييزها بعد ذلك عن غيرها محالاً فكان البعث محالاً، واعلم أن هذه الشبهة ساقطة من وجهين: الأول: لا نسلم أن الإنسان هو هذا البدن فلم لا يجوز أن يقال: إنه شيء مدبر لهذا البدن فإذا فسد هذا البدن بقي هو حيًا كما كان. وحينئذ يكون الله تعالى قادرًا على أن يرده إلى أي بدن شاء وأراد، وعلى هذا القول يسقط السؤال، وفي الآية إشارة إلى هذا لأنه أقسم بالنفس اللوامة، ثم قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ وهو تصريح بالفرق بين النفس والبدن، والثاني: إن سلمنا أن الإنسان هو هذا البدن فلم قلتم: إنه بعد تفريق أجزائه لا يمكن جمعه مرة أخرى وذلك لأنه تعالى عالم بجميع الجزئيات فيكون عالمًا بالجزء الذي هو بدن عمرو، وهو تعالى قادر على كل الممكنات

وذلك التركيب من الممكنات وإلا لما وجد أولاً، فيلزم أن يكون قادرًا على تركيبها. ومتى ثبت كونه تعالى عالمًا بجميع الجزئيات قادرًا على جميع الممكنات لا يبقى في المسألة إشكال.

وأما القسم الثاني: وهو إنكار من أنكر المعاد بناء على الشهوة فهو الذي حكاه الله تعالى بقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ ومعناه أن الإنسان الذي يميل طبعه إلى الاسترسال في الشهوات والاستكثار من اللذات لا يكاد يقر بالحشر والنشر وبعث الأموات لئلا تتنغص عليه اللذات الجسمانية فيكون أبدًا منكرًا لذلك قائلاً على سبيل الهزؤ والسخرية أيان يوم القيامة.

ثم إنه تعالى ذكر علامات القيامة فقال:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى ذكر من علامات القيامة في هذا الموضع أمورًا ثلاثة أولها: قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ قرئ بكسر الراء وفتحها، قال الأخفش: المكسورة في كلامهم أكثر والمفتوحة لغة أيضًا، قال الزجاج: بَرِق بصره بكسر الراء يَبْرُق برقًا إذا تحير، والأصل فيه أن يكثر الإنسان من النظر إلى لمعان البرق، فيؤثر ذلك في ناظره، ثم يستعمل ذلك في كل حيرة، وإن لم يكن هناك نظر إلى البرق، كما قالوا: قَمِر بصره إذا فسد من النظر إلى القمر، ثم استعير في الحيرة، وكذلك بَعِل الرجل في أمره، أي تحير ودهش، وأصله من قولهم: بعلت المرأة إذا فاجأها زوجها، فنظرت إليه وتحيرت، وأما بَرَق بفتح الراء، فهو من البريق، أي لمع من شدة شخوصه، وقرأ أبو السمال بلق بمعنى انفتح، يقال: بلق الباب وأبلقته وبلقته فتحته.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن هذه الحالة متى تحصل؟ فقيل: عند الموت، وقيل: عند البعث وقيل: عند رؤية جهنم، فمن قال: إن هذا يكون عند الموت، قال: إن البصر يبرق على معنى يشخص عند معاينة أسباب الموت والملائكة، كما يوجد ذلك في كل واحد إذا قرب موته، ومن مال إلى هذا التأويل، قال: إنهم إنما سألوه عن يوم القيامة، لكنه تعالى ذكر هذه الحادثة عند الموت، والسبب فيه من وجهين: الأول: أن المنكر لما قال: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦] على سبيل الاستهزاء فقيل له: إذا برق البصر وقرب الموت زالت عنه الشكوك، وتيقن حينئذ أن الذي كان عليه من إنكار البعث والقيامة خطأ، الثاني: أنه إذا قرب موته وبرق بصره تيقن أن إنكار البعث لأجل طلب اللذات الدنيوية كان باطلاً، وأما من قال بأن ذلك إنما يكون عند قيام القيامة، قال: لأن السؤال إنما كان عن يوم القيامة، فوجب أن يقع الجواب بما يكون من خواصه وآثاره، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وثانيها: قوله: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: يحتمل أن يكون المراد من خسوف القمر ذهاب ضوئه كما نعقله من حاله إذا

خسف في الدنيا، ويحتمل أن يكون المراد ذهابه بنفسه كقوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]

المسألة الثانية: قرئ: (وَخُسِفَ الْقَمَرُ) على البناء للمفعول، وثالثها: قوله: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في كيفية الجمع وجوهًا أحدها: أنه تعالى قال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠] فإذا جاء وقت القيامة أدرك كل واحد منهما صاحبه واجتمعا، وثانيها: جمعا في ذهاب الضوء، فهو كما يقال: الشافعي يجمع ما بين كذا وكذا في حكم كذا، وثالثها: يجمعان أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران في النار، وقيل: يجمعان ثم يقذفان في البحر، فهناك نار الله الكبرى، واعلم أن هذه الوجوه التي ذكرناها في قوله: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ إنما تستقيم على مذهب من يجعل برق البصر من علامات القيامة، فأما من يجعل برق البصر من علامات الموت قال معنى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي ذهب ضوء البصر عند الموت، يقال عين خاسفة، إذا فقئت حتى غابت حدقتها في الرأس، وأصلها من خسفت الأرض إذا ساخت بما عليها، وقوله: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ كناية عن ذهاب الروح إلى عالم الآخرة، كأن الآخرة كالشمس، فإنه يظهر فيها المغيبات وتتضح فيها المبهمات، والروح كالقمر فإنه كما أن القمر يقبل النور من الشمس، فكذا الروح تقبل نور المعارف من عالم الآخرة، ولا شك أن تفسير هذه الآيات بعلامات القيامة أولى من تفسيرها بعلامات الموت وأشد مطابقة لها.

المسألة الثانية: قال الفراء: إنما قال جمع، ولم يقل: جمعت لأن المراد أنه جمع بينهما في زوال النور وذهاب الضوء، وقال الكسائي: المعنى جمع النوران أو الضياءان، وقال أبو عبيدة: القمر شارك الشمس في الجمع، وهو مذكر، فلا جرم غلب جانب التذكير في اللفظ، قال الفراء: قلت: لمن نصر هذا القول: كيف تقولون: الشمس جمع والقمر؟ فقالوا: جمعت، فقلت ما الفرق بين الموضعين؟ فرجع عن هذا القول.

المسألة الثالثة: طعنت الملاحدة في الآية، وقالوا: خسوف القمر لا يحصل حال اجتماع الشمس والقمر والجواب: الله تعالى قادر على أن يجعل القمر منخسفًا، سواء كانت الأرض متوسطة بينه وبين الشمس، أو لم تكن، والدليل عليه أن الأجسام متماثلة، فيصح على كل واحد منها ما يصح على الآخر، والله قادر على كل الممكنات، فوجب أن يقدر على إزالة الضوء عن القمر في جميع الأحوال.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي يقول هذا الإنسان المنكر للقيامة إذا عاين هذه الأحوال أين المفر، والقراءة المشهورة بفتح الفاء، وقرئ أيضًا بكسر الفاء، والمَفَر بفتح الفاء هو الفرار، قال الأخفش والزجاج: المصدر من فَعِل يَفْعَل مفتوح العين. وهو قول جمهور أهل اللغة، والمعنى أين الفرار، وقول القائل: أين الفرار يحتمل معنيين: أحدهما: أنه لا يرى

علامات مكنة الفرار فيقول حينئذ: أين الفرار، كما إذا أيس من وجدان زيد يقول: أين زيد والثاني: أن يكون المعنى إلى أين الفرار، وأما المَفِر بكسر الفاء فهو الموضع، فزعم بعض أهل اللغة أن المفر بفتح الفاء كما يكون اسمًا للمصدر، فقد يكون أيضًا اسمًا للموضع والمفر بكسر الفاء كما يكون اسمًا للموضع، فقد يكون مصدرًا ونظيره المَرجع.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ وهو ردع عن طلب المفر ﴿لَا وَزَرَ﴾ قال المبرد والزجاج: أصل الوزر الجبل المنيع، ثم يقال: لكل ما التجأت إليه وتحصنت به وزر، وأنشد المبرد قول كعب بن مالك:

النَّاسُ آلَتْ عَلَيْنَا فِيكَ لَيسَ لَنَا ... إِلاَّ السُّيُوفَ وَأَطْرَافَ الْقَنَا وَزَرُ(١)

ومعنى الآية أنه لا شيء يعتصم به من أمر الله.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون المستقر بمعنى الاستقرار، بمعنى أنهم لا يقدرون أن يستقروا إلى غيره، وينصبوا إلى غيره، كما قال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨] ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢] ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣] ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] الثاني: أن يكون المعنى إلى ربك مستقرهم، أي موضع قرارهم من جنة أو نار، أي مفوض ذلك إلى مشيئته من شاء أدخله الجنة، ومن شاء أدخله النار.

قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بما قدم من عمل عمله، وبما أخر من عمل لم يعمله، أو بما قدم من ماله فتصدق به وبما أخره فخلفه، أو بما قدم من عمل الخير والشر وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة، فعمل بها بعده، وعن مجاهد أنه مفسر بأول العمل وآخره، ونظيره قوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] وقال: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] واعلم أن الأظهر أن هذا الإنباء يكون يوم القيامة عند العرض، والمحاسبة ووزن الأعمال، ويجوز أن يكون عند الموت وذلك أنه إذا مات بين له مقعده من الجنة والنار.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ اعلم أنه تعالى لما قال: ينبؤ الإنسان يومئذ بأعماله، قال: بل لا يحتاج إلى أن ينبئه غيره، وذلك لأن نفسه شاهدة بكونه فاعلاً لتلك الأفعال، مقدمًا عليها، ثم في قوله: ﴿بَصِيرَةٌ﴾ وجهان: الأول: قال الأخفش جعله في نفسه بصيرة كما يقال: فلان جود وكرم، فهاهنا أيضًا كذلك، لأن الإنسان بضرورة عقله يعلم أن ما يقربه إلى الله

---

(١) كعب بن مالك وهوكعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري السلمي الخزرجي. ؟- ٥٠هـ/ ؟ ٦٧٠م صحابي من أكابر الشعراء من أهل المدينة واشتهر في الجاهلية وكان في الإسلام من شعراء النبي ﷺ وشهد أكثر الوقائع.

ويشغله بطاعته وخدمته فهو السعادة، وما يبعده عن طاعة الله ويشغله بالدنيا ولذاتها فهو الشقاوة، فهب أنه بلسانه يروج ويزور ويرى الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق، لكنه بعقله السليم يعلم أن الذي هو عليه في ظاهره جيد أو رديء، والثاني: أن المراد جوارحه تشهد عليه بما عمل فهو شاهد على نفسه بشهادة جوارحه، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير ومقاتل وهو كقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾[النور: ٢٤] وقوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾[يس: ٦٥] وقوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾[فصلت: ٢٠] فأما تأنيث البصيرة، فيجوز أن يكون لأن المراد بالإنسان هاهنا الجوارح كأنه قيل: بل جوارح الإنسان، كأنه قيل بل جوارح الإنسان على نفس الإنسان بصيرة، وقال أبو عبيدة: هذه الهاء لأجل المبالغة كقوله: رجل راوية وطاغية وعلامة.

واعلم أنه تعالى ذكر في الآية الأولى أن الإنسان يخبر يوم القيامة بأعماله. ثم ذكر في هذه الآية أنه شاهد على نفسه بما عمل، فقال الواحدي: هذا يكون من الكفار فإنهم ينكرون ما عملوا فيختم الله على أفواههم وينطق جوارحهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾

للمفسرين فيه أقوال: الأول: قال الواحدي: المعاذير: جمع معذرة يقال: معذرة ومعاذر ومعاذير: قال صاحب (الكشاف) جمع المعذرة مَعَاذر والمعاذير ليس جمع معذرة، وإنما هو اسم جمع لها، ونحوه المناكير في المنكر، والمعنى أن الإنسان وإن اعتذر عن نفسه وجادل عنها وأتى بكل عذر وحجة، فإنه لا ينفعه ذلك لأنه شاهد على نفسه، القول الثاني: قال الضحاك والسدي والفراء والمبرد والزجاج: المعاذير الستور واحدها معذار، قال المبرد: هي لغة يمانية، قال صاحب (الكشاف): إن صحت هذه الرواية فذاك مجاز من حيث إن الستر يمنع رؤية المحتجب كما تمنع المعذرة عقوبة الذنب، والمعنى على هذا القول: أنه وإن أسبل الستر ليخفي ما يعمل، فإن نفسه شاهدة عليه.

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: زعم قوم من قدماء الروافض أن هذا القرآن قد غُيِّر وبُدِّل وزيد فيه ونقص عنه، واحتجوا عليه بأنه لا مناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها ولو كان هذا الترتيب من الله تعالى لما كان الأمر كذلك.

واعلم أن في بيان المناسبة وجوهًا: أولها: يحتمل أن يكون الاستعجال المنهي عنه، إنما اتفق للرسول عليه السلام عند إنزال هذه الآيات عليه، فلا جرم نهى عن ذلك الاستعجال في هذا الوقت، وقيل له: لا تحرك به لسانك لتعجل به وهذا كما أن المدرس إذا كان يلقي على تلميذه شيئًا، فأخذ التلميذ يلتفت يمينًا وشمالاً، فيقول المدرس في أثناء ذلك الدرس لا تلتفت يمينًا

وشمالاً ثم يعود إلى الدرس، فإذا نقل ذلك الدرس مع هذا الكلام في أثنائه، فمن لم يعرف السبب يقول: إن وقوع تلك الكلمة في أثناء ذلك الدرس غير مناسب، لكن من عرف الواقعة علم أنه حسن الترتيب، وثانيها: أنه تعالى نقل عن الكفار أنهم يحبون السعادة العاجلة، وذلك هو قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٥]ثم بيَّن أن التعجيل مذموم مطلقًا حتى التعجيل في أمور الدين فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ وقال في آخر الآية: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، وثالثها: أنه تعالى قال: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ فهاهنا كان الرسول ﷺ يظهر التعجيل في القراءة مع جبريل، وكان يجعل العذر فيه خوف النسيان، فكأنه قيل له: إنك إذا أتيت بهذا العذر لكنك تعلم أن الحفظ لا يحصل إلا بتوفيق الله وإعانته فاترك هذا التعجيل واعتمد على هداية الله تعالى، وهذا هو المراد من قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، ورابعها: كأنه تعالى قال: يا محمد إن غرضك من هذا التعجيل أن تحفظه وتبلغه إليهم لكن لا حاجة إلى هذا فإن الإنسان على نفسه بصيرة وهم بقلوبهم يعلمون أن الذي هم عليه من الكفر وعبادة الأوثان، وإنكار البعث منكر باطل، فإذا كان غرضك من هذا التعجيل أن تعرفهم قبح ما هم عليه، ثم إن هذه المعرفة حاصلة عندهم، فحينئذ لم يبق لهذا التعجيل فائدة، فلا جرم قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾، وخامسها: أنه تعالى حكى عن الكافر أنه يقول: أين المفر، ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١١-١٢]فالكافر كأنه كان يفر من الله تعالى إلى غيره، فقيل لمحمد إنك في طلب حفظ القرآن، تستعين بالتكرار وهذا استعانة منك بغير الله، فاترك هذه الطريقة، واستعن في هذا الأمر بالله فكأنه قيل: إن الكافر يفر من الله إلى غيره، وأما أنت فكن كالمضاد له فيجب أن تفر من غير الله إلى الله وأن تستعين في كل الأمور بالله، حتى يحصل لك المقصود على ما قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]وقال في سورة أخرى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]أي لا تستعن في طلب الحفظ بالتكرار بل اطلبه من الله تعالى، وسادسها: ما ذكره القفال وهو أن قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ ليس خطابًا مع الرسول عليه السلام بل هو خطاب مع الإنسان المذكور في قوله: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]فكان ذلك للإنسان حال ما ينبأ بقبائح أفعاله وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]فإذا أخذ في القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف وسرعة القراءة فيقال له: لا تحرك به لسانك لتعجل به، فإنه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجمع أعمالك عليك وأن نقرأها عليك فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال، ثم إن علينا بيان أمره وشرح مراتب عقوبته، وحاصل الأمر من تفسير هذه الآية أن المراد منه أنه تعالى يقرأ على الكافر جميع أعماله على سبيل التفصيل، وفيه أشد الوعيد في الدنيا وأشد التهويل في الآخرة، ثم قال القفال: فهذا وجه حسن ليس في العقل ما يدفعه وإن كانت الآثار غير واردة به.

المسألة الثانية: احتج من جوز الذنب على الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية، فقال: إن ذلك الاستعجال إن كان بإذن الله تعالى فكيف نهاه عنه وإن كان لا بإذن الله تعالى فقد صدر الذنب عنه، الجواب: لعل ذلك الاستعجال كان مأذونًا فيه إلى وقت النهي عنه، ولا يبعد أن يكون الشيء مأذونًا فيه في وقت ثم يصير منهيًا عنه في وقت آخر، ولهذا السبب قلنا: يجوز النسخ.

المسألة الثالثة: روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يشتد عليه حفظ التنزيل وكان إذا نزل عليه الوحي يحرك لسانه وشفتيه قبل فراغ جبريل مخافة أن لا يحفظ، فأنزل تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ أي بالوحي والتنزيل والقرآن، وإنما جاز هذا الإضمار وإن لم يجر له ذكر لدلالة الحال عليه، كما أضمر في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] ونظير قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤] وقوله: ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي لتعجل بأخذه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾

ففيه مسائل

المسألة الأولى: كلمة على للوجوب فقوله: إن علينا يدل على أن ذلك كالواجب على الله تعالى، أما على مذهبنا فذلك الوجوب بحكم الوعد، وأما على قول المعتزلة: فلأن المقصود من البعثة لا يتم إلا إذا كان الوحي محفوظًا مبرأ عن النسيان، فكان ذلك واجبًا نظرًا إلى الحكمة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ معناه علينا جمعه في صدرك وحفظك، وقوله: ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن المراد من القرآن القراءة، وعلى هذا التقدير ففيه احتمالان أحدهما: أن يكون المراد جبريل عليه السلام، سيعيده عليك حتى تحفظه، والثاني: أن يكون المراد إنا سنقرئك يا محمد إلى أن تصير بحيث لا تنساه، وهو المراد من قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] فعلى هذا الوجه الأول القارئ جبريل عليه السلام، وعلى الوجه الثاني القارئ محمد ﷺ، والوجه الثاني: أن يكون المراد من القرآن الجمع والتأليف، من قولهم: ما قرأت الناقة سلًا قط، أي ما جمعت، وبنت عمرو بن كلثوم لم تقرأ جنينًا، وقد ذكرنا ذلك عند تفسير القرء، فإن قيل: فعلى هذا الوجه يكون الجمع والقرآن واحدًا فيلزم التكرار، قلنا: يحتمل أن يكون المراد من الجمع جمعه في نفسه ووجوده الخارجي، ومن القرآن جمعه في ذهنه وحفظه، وحينئذ يندفع التكرار.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: جعل قراءة جبريل عليه السلام قراءته، وهذا يدل على الشرف العظيم لجبريل عليه السلام، ونظيره في حق محمد عليه الصلاة والسلام ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

المسألة الثالثة: قال ابن عباس: معناه فإذا قرأه جبريل فاتبع قرآنه، وفيه وجهان: الأول: قال قتادة: فاتبع حلاله وحرامه، والثاني: فاتبع قراءته، أي لا ينبغي أن تكون قراءتك مقارنة لقراءة جبريل، لكن يجب أن تسكت حتى يتم جبريل عليه السلام القراءة، فإذا سكت جبريل فخذ أنت في القراءة، وهذا الوجه أولى لأنه عليه السلام أمر أن يدع القراءة ويستمع من جبريل عليه السلام، حتى إذا فرغ جبريل قرأه، وليس هذا موضع الأمر باتباع ما فيه من الحلال والحرام. قال ابن عباس: فكان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بعد هذه الآية أطرق واستمع فإذا ذهب قرأه[1].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۝٢١﴾

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: الآية تدل على أنه عليه السلام كان يقرأ مع قراءة جبريل عليه السلام وكان يسأل في أثناء قراءته مشكلاته ومعانيه لغاية حرصه على العلم، فنهى النبي عليه السلام عن الأمرين جميعًا، أما عن القراءة مع قراءة جبريل فبقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] وأما عن إلقاء الأسئلة في البيان فبقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾.

المسألة الثانية: احتج من جوز تأخير البيان عن وقت الخطاب بهذه الآية. وأجاب أبو الحسين عنه من وجهين: الأول: أن ظاهر الآية يقتضي وجوب تأخير البيان عن وقت الخطاب وأنتم لا تقولون به، الثاني: أن عندنا الواجب أن يقرن باللفظ إشعارًا بأنه ليس المراد من اللفظ ما يقتضيه ظاهره، فأما البيان التفصيلي فيجوز تأخيره فتحمل الآية على تأخير البيان التفصيلي، وذكر القفال وجهًا ثالثًا وهو أن قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي ثم إنا نخبرك بأن علينا بيانه، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٣ - ١٧] والجواب عن الأول: أن اللفظ لا يقتضي وجوب تأخير البيان بل يقتضي تأخير وجوب البيان، وعندنا الأمر كذلك لأن وجوب البيان لا يتحقق إلا عند الحاجة، وعن الثاني: أن كلمة (ثم) دخلت مطلق البيان فيتناول البيان المجمل والمفصل، وأما سؤال القفال فضعيف أيضًا لأنه ترك للظاهر من غير دليل.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ يدل على أن بيان المجمل واجب على الله تعالى، أما عندنا فبالوعد والتفضل. وأما عند المعتزلة فبالحكمة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): ﴿كَلَّا﴾ ردع لرسول الله ﷺ عن عادة العجلة وحث على الأناة والتؤدة، وقد بالغ في ذلك باتباعه قوله: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ كأنه قال: بل أنتم يا

---

(١) لم أجده.

بني آدم لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلون في كل شيء، ومن ثم تحبون العاجلة وتذرون الأخرة، وقال سائر المفسرين: ﴿كَلَّا﴾ معناه حقًّا أي حقًّا تحبون العاجلة وتذرون الآخرة، والمعنى أنهم يحبون الدنيا ويعملون لها ويتركون الآخرة ويعرضون عنها.

المسألة الثانية: قرئ: تحبون وتذرون بالتاء والياء، وفيه وجهان: الأول: قال الفراء: القرآن إذا نزل تعريفًا لحال قوم، فتارة ينزل على سبيل المخاطبة لهم. وتارة ينزل على سبيل المغايبة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]الثاني: قال أبو علي الفارسي: الياء على ما تقدم من ذكر الإنسان في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [القيامة: ٣]والمراد منه الكثرة، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]والمعنى أنهم يحبون ويذرون، والتاء على قل لهم، بل تحبون وتذرون.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال الليث: نَضُر اللون والشجر والورق يَنضُرُ نضْرةً، والنَّضْرَة النعمة، والناضر الناعم، والنَّضِر الحسن من كل شيء، ومنه يقال للون إذا كان مشرقًا: ناضر، فيقال: أخضر ناضر، وكذلك في جميع الألوان، ومعناه الذي يكون له برق، وكذلك يقال: شجر ناضر، وروض ناضر. ومنه قوله عليه السلام: «نَضَّر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها» الحديث. أكثر الرواة رواه بالتخفيف، وروى عكرمة عن الأصمعي فيه التشديد، وألفاظ المفسرين مختلفة في تفسير الناضر، ومعناها واحد قالوا: مسرورة، ناعمة، مضيئة، مسفرة، مشرقة بهجة. وقال الزجاج: نضرت بنعيم الجنة، كما قال: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ اعلم أن جمهور أهل السنة يتمسكون بهذه الآية في إثبات أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة. أما المعتزلة فلهم هاهنا مقامان أحدهما: بيان أن ظاهره لا يدل على رؤية الله تعالى، والثاني: بيان التأويل.

أما المقام الأول: فقالوا: النظر المقرون بحرف (إلى) ليس اسمًا للرؤية، بل لمقدمة الرؤية وهي تقليب الحدقة نحو المرئي التماسًا لرؤيته، ونظر العين بالنسبة إلى الرؤية كنظر القلب بالنسبة إلى المعرفة، وكالإصغاء بالنسبة إلى السماع، فكما أن نظر القلب مقدمة للمعرفة، والإصغاء مقدمة للسماع، فكذا نظر العين مقدمة للرؤية، قالوا: والذي يدل على أن النظر ليس اسمًا للرؤية وجوه الأول: قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]أثبت النظر حال عدم الرؤية، فدل على أن النظر غير الرؤية، والثاني: أن النظر يوصف بما لا توصف به الرؤية، يقال: نظر إليه نظرًا شزرًا، ونظر غضبان، ونظر راضٍ، وكل ذلك لأجل أن حركة الحدقة تدل على هذه الأحوال، ولا توصف الرؤية بشيءمن ذلك، فلا يقال: رآه شزرًا، ورآه رؤية غضبان،

أو رؤية راضٍ الثالث: يقال: انظر إليه حتى تراه، ونظرت إليه فرأيته، وهذا يفيد كون الرؤية غاية للنظر، وذلك يوجب الفرق بين النظر والرؤية، الرابع: يقال: دُورُ فلان متناظرة، أي متقابلة، فمسمى النظر حاصل هاهنا، ومسمى الرؤية غير حاصل الخامس: قوله الشاعر:

وُجُوهٌ نَاظِرَاتٌ يَوْمَ بَدْرٍ ... إِلَى الرَّحْمَنِ تَنْتَظِرُ الْخَلَاصَا

أثبت النظر المقرون بحرف (إلى) مع أن الرؤية ما كانت حاصلة، السادس: احتج أبو علي الفارسي على أن النظر ليس عبارة عن الرؤية، التي هي إدراك البصر، بل هو عبارة عن تقليب الحدقة نحو الجهة التي فيها الشيء الذي يراد رؤيته، لقول الشاعر:

فَيَا مَيُّ هَلْ يُجْزِي بكائي بمثله ... مرارًا وأنفاسي إليك الزوافر(١)

وَإِنِّي مَتَى أُشرِفْ عَلَى الْجَانِبِ الَّذِي ... بِهِ أَنْتِ مِنْ بَيْنِ الْجَوَانِبِ نَاظِرَا

قال: فلو كان النظر عبارة عن الرؤية لما طلب الجزاء عليه، لأن المحب لم يطلب الثواب على رؤية المحبوب، فإن ذلك من أعظم مطالبه، قال: ويدل على ذلك أيضًا قول الآخر:

وَنَظْرَةُ ذِي شَجَنٍ وَامِقٍ ... إِذَا مَا الرَّكَائِبُ جَاوَزْنَ مِيلًا(٢)

والمراد منه تقليب الحدقة نحو الجانب الذي فيه المحبوب، فعلمنا بهذه الوجوه أن النظر المقرون بحرف (إلى) ليس اسمًا للرؤية، السابع: أن قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ معناه أنها تنظر إلى ربها خاصة ولا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾[القيامة: ١٢]، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾[القيامة: ٣٠]، ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[الشورى: ٥٣]، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الزخرف: ٨٥]، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[آل عمران: ٢٨]، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[الشورى: ١٠]، كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد في موقف القيامة، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فلما دلت الآية على أن النظر ليس إلا إلى الله، ودل العقل على أنهم يرون غير الله، علمنا أن المراد من النظر إلى الله ليس هو الرؤية، الثامن: قال تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[آل عمران: ٧٧] ولو قال: لا يراهم كفى، فلما نفى النظر، ولم ينف الرؤية دل على المغايرة، فثبت بهذه الوجوه، أن النظر المذكور في هذه الآية ليس هو الرؤية.

المقام الثاني: في بيان التأويل المفصل، وهو من وجهين: الأول: أن يكون الناظر بمعنى

---

(١) هذا البيت لذي الرمة وتقدمت ترجمته.

(٢) هذا البيت للشاعر بشامة بن الغدير العُذري أبو بشامة بن عمرو بن معاوية بن الغدير بن هلال المري. ؟ - ١٤ ق. هـ/ ؟ -٦٠٨ م من شعراء المفضليات أورد الخطيب التبريزي نسبته هذين الوجهين، والأول عن أبي عكرمة وسماه الجمحي بشامة ابن الغدير المري. وعده من الإسلاميين، مع أن المشهور كما في السمط أنه خال زهير أو أبي زهير وفيه النص على أنه جاهلي (نهشلي) وكان كثير المال حتى فقأ عين بعير ومن عادتهم إذا ملك الرجل ألف بعير فقأ عين فحلها.

المنتظر، أي أولئك الأقوام ينتظرون ثواب الله، وهو كقول القائل: إنما أنظر إلى فلان في حاجتي والمراد أنتظر نجاحها من جهته، وقال تعالى: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[النمل: ٣٥] وقال: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[البقرة: ٢٨٠] لا يقال: النظر المقرون بحرف إلى غير مستعمل في معنى الانتظار، ولأن الانتظار غم وألم، وهو لا يليق بأهل السعادة يوم القيامة، لأنا نقول: الجواب: عن الأول من وجهين: الأول: النظر المقرون بحرف (إلى) قد يستعمل بمعنى الانتظار، والتوقع والدليل عليه أنه يقال: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي، والمراد منه التوقع والرجاء، وقال الشاعر:

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ وَالْبَحْرُ دُونَكَ زِدْتَنِي نِعَمَا

وتحقيق الكلام فيه أن قولهم في الانتظار نظرت بغير صلة، فإنما ذلك في الانتظار لمجيء الإنسان بنفسه، فأما إذا كان منتظرًا لرفده ومعونته، فقد يقال فيه: نظرت إليه كقول الرجل، وإنما نظري إلى الله ثم إليك، وقد يقول ذلك من لا يبصر، ويقول الأعمى في مثل هذا المعنى: عيني شاخصة إليك، ثم إن سلمنا ذلك لكن لا نسلم أن المراد من ﴿إِلَىٰ﴾ هاهنا حرف التعدي. بل هو واحد الآلاء، والمعنى: وجوه يومئذ ناضرة نعمة ربها منتظرة.

وأما السؤال الثاني: وهو أن الانتظار غم وألم، فجوابه أن المنتظر إذا كان فيما ينتظره على يقين من الوصول إليه، فإنه يكون في أعظم اللذات.

التأويل الثاني: أن يضمر المضاف، والمعنى إلى ثواب ربها ناظرة، قالوا: وإنما صرنا إلى هذا التأويل، لأنه لما دلت الدلائل السمعية والعقلية على أنه تعالى تمتنع رؤيته وجب المصير إلى التأويل، ولقائل أن يقول: فهذه الآية تدل أيضًا على أن النظر ليس عبارة عن تقليب الحدقة، لأنه تعالى قال: لا ينظر إليهم وليس المراد أنه تعالى يقلب الحدقة إلى جهنم فإن قلتم: المراد أنه لا ينظر إليهم نظر الرحمة كان ذلك جوابنا عما قالوه.

التأويل الثالث: أن يكون معنى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أنها لا تسأل ولا ترغب إلا إلى الله، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام: «اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» فأهل القيامة لشدة تضرعهم إليه وانقطاع أطماعهم عن غيره صاروا كأنهم ينظرون إليه، الجواب: قوله: ليس النظر عبارة عن الرؤية، قلنا: هاهنا مقامان: **الأول:** أن تقيم الدلالة على أن النظر هو الرؤية من وجهين: **الأول:** ما حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام وهو قوله: ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فلو كان النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جانب المرئي، لاقتضت الآية أن موسى عليه السلام أثبت لله تعالى وجهة ومكانًا وذلك محال. **الثاني:** أنه جعل النظر أمرًا مرتبًا على الإرادة فيكون النظر متأخرًا عن الإرادة، وتقليب الحدقة غير متأخر عن الإرادة، فوجب أن يكون النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جانب المرئي.

المقام الثاني: وهو الأقرب إلى الصواب، سلمنا أن النظر عبارة عن تقليب الحدقة نحو المرئي

التماسًا لرؤيته، لكنا نقول: لما تعذر حمله على حقيقته وجب حمله على مسببه وهو الرؤية، إطلاقًا لاسم السبب على المسبب، وحمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار، لأن تقليب الحدقة كالسبب للرؤية ولا تعلق بينه وبين الانتظار، فكان حمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار.

أما قوله: النظر جاء بمعنى الانتظار، قلنا: لنا في الجواب مقامان:

الأول: أن النظر الوارد بمعنى الانتظار كثير في القرآن، ولكنه لم يقرن ألبتة بحرف (إلى) كقوله تعالى: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣] وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣] ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] والذي ندعيه أن النظر المقرون بحرف (إلى) المعدى إلى الوجوه ليس إلا بمعنى الرؤية أو بالمعنى الذي يستعقب الرؤية ظاهر، فوجب أن لا يرد بمعنى الانتظار دفعًا للاشتراك.

وأما قول الشاعر:

وُجُوهٌ نَاظِرَاتٌ يَوْمَ بَدْرٍ إِلَى الرَّحْمَنِ تَنْتَظِرُ الْخَلَاصَا

قلنا: هذا الشعر موضوع والرواية الصحيحة:

وُجُوهٌ نَاظِرَاتٌ يَوْمَ بَكْرٍ إِلَى الرَّحْمَنِ تَنْتَظِرُ الْخَلَاصَا

والمراد من هذا الرحمن مسيلمة الكذاب، لأنهم كانوا يسمونه رحمن اليمامة، فأصحابه كانوا ينظرون إليه ويتوقعون منه التخلص من الأعداء، وأما قول الشاعر:

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ

فالجواب: أن قوله: وإذا نظرت إليك، لا يمكن أن يكون المراد منه الانتظار، لأن مجرد الانتظار لا يستعقب العطية بل المراد من قوله: وإذا نظرت إليك، وإذا سألتك لأن النظر إلى الإنسان مقدمة المكالمة فجاز التعبير عنه به، وقوله: كلمة (إلى) هاهنا ليس المراد منه حرف التعدي بل واحد الآلاء، قلنا: إن إلى على هذا القول تكون اسمًا للماهية التي يصدق عليه أنها نعمة، فعلى هذا يكفي في تحقق مسمى هذه اللفظة أي جزء فرض من أجزاء النعمة، وإن كان في غاية القلة والحقارة، وأهل الثواب يكونون في جميع مواقف القيامة في النعم العظيمة المتكاملة، ومن كان حاله كذلك كيف يمكن أن يبشر بأنه يكون في توقع الشيء الذي ينطلق عليه اسم النعمة، ومثال هذا أن يبشر سلطان الأرض بأنه سيصير حالك في العظمة والقوة بعد سنة، بحيث تكون متوقعًا لحصول اللقمة الواحدة من الخبز والقطرة الواحدة من الماء، وكما أن ذلك فاسد من القول: فكذا هذا.

المقام الثاني: هب أن النظر المعدى بحرف (إلى) المقرون بالوجوه جاء في اللغة بمعنى الانتظار لكن لا يمكن حمل هذه الآية عليه، لأن لذة الانتظار مع يقين الوقوع كانت حاصلة في الدنيا، فلا بد وأن يحصل في الآخرة شيء أزيد منه حتى يحسن ذكره في معرض الترغيب في

الآخرة، ولا يجوز أن يكون ذلك هو قرب الحصول، لأن ذلك معلوم بالعقل فبطل ما ذكروه من التأويل.

وأما التأويل الثاني: وهو أن المراد إلى ثواب ربها ناظرة، فهذا ترك للظاهر، وقوله: إنما صرنا إليه لقيام الدلائل العقلية والنقلية على أن الله لا يرى، قلنا: بينا في الكتب العقلية ضعف تلك الوجوه، فلا حاجة هاهنا إلى ذكرها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥ ﴾

الباسر: الشديد العبوس والباسل أشد منه، ولكنه غلب في الشجاع إذا اشتد كلوحه، والمعنى أنها عابسة كالحة قد أظلمت ألوانها وعدمت آثار السرور والنعمة منها، لما أدركها من الشقاء واليأس من رحمة الله، ولما سودها الله حين ميز الله أهل الجنة والنار، وقد تقدم تفسير البسور عند قوله: ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ [المدثر: ٢٢] وإنما كانت بهذه الصفة، لأنها قد أيقنت أن العذاب نازل، وهو قوله: ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ والظن هاهنا بمعنى اليقين، هكذا قاله المفسرون، وعندي أن الظن إنما ذكر هاهنا على سبيل التهكم كأنه قيل: إذا شاهدوا تلك الأحوال، حصل فيهم ظن أن القيامة حق، وأما الفاقرة، فقال أبو عبيدة: الفاقرة الداهية، وهو اسم للوسم الذي يفقر به على الأنف، قال الأصمعي: الفقر أن يحز أنف البعير حتى يخلص إلى العظم، أو قريب منه، ثم يجعل فيه خشبة يجر البعير بها، ومنه قيل: عملت به الفاقرة، قال المبرد: الفاقرة داهية تكسر الظهر، وأصلها من الفقرة والفقارة كأن الفاقرة داهية تكسر فقار الظهر، وقال ابن قتيبة: يقال فقرت الرجل، كما يقال رأسته وبطنته فهو مفقور، واعلم أن من المفسرين من فسر الفاقرة بأنواع العذاب في النار، وفسرها الكلبي فقال: الفاقرة هي أن تحجب عن رؤية ربها ولا تنظر إليه.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ ﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ قال الزجاج: كلا ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة، كأنه قيل: لما عرفتم صفة سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء في الآخرة، وعلمتم أنه لا نسبة لها إلى الدنيا، فارتدعوا عن إيثار الدنيا على الآخرة، وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم، وتنتقلون إلى الآجلة التي تبقون فيها مخلدين، وقال آخرون: ﴿كَلَّآ﴾ أي حقًّا إذا بلغت التراقي كان كذا وكذا، والمقصود أنه لما بين تعظيم أحوال الآخرة بين أن الدنيا لا بد فيها من الانتهاء والنفاد والوصول إلى تجرع مرارة الموت. وقال مقاتل: ﴿كَلَّآ﴾ أي لا يؤمن الكافر بما ذكر من أمر القيامة، ولكنه لا يمكنه أن يدفع أنه لا بد من الموت، ومن تجرع آلامها، وتحمل آفاتها.

ثم إنه تعالى وصف تلك الحالة التي تفارق الروح فيها الجسد فقال: ﴿ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: المراد إذا بلغت النفس أو الروح، أخبر عما لم يجر له ذكر لعلم المخاطب

بذلك، كقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[القدر: ١] والتراقي جمع ترقوة. وهي عظم وصل بين ثغرة النحر، والعاتق من الجانبين.

واعلم أنه يكنى ببلوغ النفس التراقي عن القرب من الموت، ومنه قول دريد بن الصمة:

وَرُبَّ عَظِيمَةٍ دَافَعْتُ عَنْهَا وَقَدْ بَلَغَتْ نُفُوسُهُمُ التَّرَاقِي(١)

ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾[الواقعة: ٨٣].

المسألة الثانية: قال بعض الطاعنين: إن النفس إنما تصل إلى التراقي بعد مفارقتها عن القلب ومتى فارقت النفس القلب حصل الموت لا محالة، والآية تدل على أن عند بلوغها التراقي، تبقى الحياة حتى يقال فيه: من راق، وحتى تلتف الساق بالساق والجواب: المراد من قوله: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ أي إذا حصل القرب من تلك الحالة.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾: وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في راق وجهان: الأول: أن يكون من الرقية يقال: رقاه يرقيه رقية إذا عوذه بما يشفيه، كما يقال: بسم الله أرقيك، وقائل هذا القول على هذا الوجه، هم الذين يكونون حول الإنسان المشرف على الموت، ثم هذا الاستفهام، يحتمل أن يكون بمعنى الطلب كأنهم طلبوا له طبيبًا يشفيه، وراقيًا يرقيه، ويحتمل أن يكون استفهامًا بمعنى الإنكار، كما يقول القائل عند اليأس: من الذي يقدر أن يرقي هذا الإنسان المشرف على الموت، الوجه الثاني: أن يكون قوله: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ من رَقَى يرقى رقيًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾[الإسراء: ٩٣] وعلى هذا الوجه يكون قائل هذا القول هم الملائكة. قال ابن عباس: إن الملائكة يكرهون القرب من الكافر، فيقول ملك الموت من يرقى بهذا الكافر، وقال الكلبي: يحضر العبد عند الموت سبعة أملاك من ملائكة الرحمة، وسبعة من ملائكة العذاب مع ملك الموت، فإذا بلغت نفس العبد التراقي نظر بعضهم إلى بعض، أيهم يرقى بروحه إلى السماء فهو ﴿مَنْ رَاقٍ﴾.

المسألة الثانية: قال الواحدي: إن إظهار النون عند حروف الفم لحسن، فلا يجوز إظهار نون من في قوله: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ وروى حفص عن عاصم إظهار النون في قوله: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ و﴿بَلْ رَانَ﴾[المطففين: ١٤].

قال أبو علي الفارسي، ولا أعرف وجه ذلك، قال الواحدي، والوجه أن يقال: قصد الوقف على (من) و(بل)، فأظهرها ثم ابتدأ بما بعدهما، وهذا غير مرضي من القراءة.

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ قال المفسرون: المراد أنه أيقن بمفارقته الدنيا، ولعله إنما سمي

---

(١) هذا البيت لعمرة بنت دريد بن العمة وهو من البحر الوافر وعمرة هي عمرة بنت دريد بن الصمة شاعرة مخضرمة. لها شعر في رثاء والدها دريد بن الصمة، قتل أبوها في غزوة حنين وهو على الكفر في السنة الثامنة للهجرة.

اليقين هاهنا بالظن، لأن الإنسان ما دام يبقى روحه متعلقًا ببدنه، فإنه يطمع في الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة على ما قال: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ [القيامة: ٢٠] ولا ينقطع رجاؤه عنها فلا يحصل له يقين الموت، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة، أو لعله سماه بالظن على سبيل التهكم.

واعلم أن الآية دالة على أن الروح جوهر قائم بنفسه باق بعد موت البدن، لأنه تعالى سمى الموت فراقًا، والفرق إنما يكون لو كانت الروح باقية، فإن الفراق والوصال صفة، والصفة تستدعي وجود الموصوف.

ثم قال تعالى: ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ الالتفاف هو الاجتماع، كقوله تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] وفي الساق قولان: القول الأول: أنه الأمر الشديد، قال أهل المعاني: لأن الإنسان إذا دهمته شدة شمر لها عن ساقه، فقيل للأمر الشديد: ساق، وتقول العرب: قامت الحرب على ساق، أي اشتدت، قال الجعدي:

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضَّهَا وَإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّرَا

ثم قال: والمراد بقوله: ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ أي التفت شدة مفارقة الدنيا ولذاتها وشدة الذهاب، أو التفت شدة ترك الأهل، وترك الولد، وترك المال، وترك الجاه، وشدة شماتة الأعداء، وغم الأولياء، وبالجملة فالشدائد هناك كثيرة، كشدة الذهاب إلى الآخرة والقدوم على الله، أو التفت شدة ترك الأحباب والأولياء، وشدة الذهاب إلى دار الغربة، والقول الثاني: أن المراد من الساق هذا العضو المخصوص، ثم ذكروا على هذا القول وجوهًا أحدها: قال الشعبي وقتادة: هما ساقاه عند الموت أما رأيته في النزع كيف يضرب بإحدى رجليه على الأخرى، والثاني: قال الحسن وسعيد بن المسيب: هما ساقاه إذا التفتا في الكفن، والثالث: أنه إذا مات يبست ساقاه، والتصقت إحداهما بالأخرى.

قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ ﴾

المساق مصدر من ساق يسوق، كالمقال من قال يقول، ثم فيه وجهان أحدهما: أن يكون المراد أن المسوق إليه هو الرب، والثاني: أن يكون المراد أن السائق في ذلك اليوم هو الرب، أي سوق هؤلاء مفوض إليه.

قوله تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴾.

وفيه مسائل

المسألة الأولى: أنه تعالى شرح كيفية عمله فيما يتعلق بأصول الدين وبفروعه، وفيما يتعلق بدنياه. أما ما يتعلق بأصول الدين فهو أنه ما صدق بالدين، ولكنه كذب به، وأما ما يتعلق بفروع

الدين، فهو أنه ما صلى ولكنه تولى وأعرض، وأما ما يتعلق بدنياه، فهو أنه ذهب إلى أهله يتمطى، ويتبختر، ويختال في مشيته، واعلم أن الآية دالة على أن الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة كما يستحقهما بترك الإيمان.

المسألة الثانية: قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ حكاية عمن؟ فيه قولان: الأول: أنه كناية عن الإنسان في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣] ألا ترى إلى قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] وهو معطوف على قوله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦] والقول الثاني: أن الآية نزلت في أبي جهل.

المسألة الثالثة: في ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ قولان: أحدهما: أن أصله يتمطط أي يتمدد، لأن المتبختر يمد خطاه، فقلبت الطاء فيه ياء، كما قيل: في تقصى أصله تقصص، والثاني: من المطا وهو الظهر لأنه يلويه، وفي الحديث: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيْطَى» أي مشية المتبختر.

المسألة الرابعة: قال أهل العربية: ﴿لَا﴾ هاهنا في موضع (لم) فقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي لم يصدق ولم يصل، وهو كقوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١] أي لم يقتحم، وكذلك ما روي في الحديث: «أرأيت من لا أكل ولا شرب، ولا استهل» قال الكسائي: لم أر العرب قالت في مثل هذا كلمة وحدها حتى تتبعها بأخرى، إما مصرحًا أو مقدرًا، أما المصرح فلا يقولون: لا عبدالله خارج حتى يقولون، ولا فلان، ولا يقولون: مررت برجل لا يحسن حتى يقولوا، ولا يَجْمُل، وأما المقدر فهو كقوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ ثم اعترض الكلام، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾ [البلد: ١٢-١٤] وكان التقدير لا فك رقبة، ولا أطعم مسكينًا، فاكتفى به مرة واحدة، ومنهم من قال التقدير في قوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾ أي أفلا اقتحم، وهلا اقتحم.

قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾:

قال قتادة والكلبي ومقاتل: أخذ رسول الله ﷺ بيد أبي جهل. ثم قال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ توعده، فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني؟ لا تستطع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئًا، وإني لأعز أهل هذا الوادي، ثم انسل ذاهبًا، فأنزل الله تعالى كما قال له الرسول عليه الصلاة والسلام، ومعنى قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ بمعنى ويل لك، وهو دعاء عليه، بأن يليه ما يكرهه، قال القاضي: المعنى بعد ذلك، فبعدًا (لك) في أمر دنياك، وبعدًا لك، في أمر أخراك، وقال آخرون: المعنى الويل لك مرة بعد ذلك، وقال القفال: هذا يحتمل وجوهًا أحدها: أنه وعيد مبتدأ من الله للكافرين والثاني: أنه شيء قاله النبي ﷺ لعدوه فاستنكره عدو الله لعزته عند نفسه، فأنزل الله تعالى مثل ذلك، والثالث: أن يكون ذلك أمرًا من الله لنبيه، بأن يقولها لعدو الله، فيكون المعنى ﴿ثُمَّ

ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٣] فقل له: يا محمد: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ أي احذر، فقد قرب منك مالا قبل لك به من المكروه.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي مهملاً لا يؤمر، ولا ينهى، ولا يكلف في الدنيا ولا يحاسب بعمله في الآخرة، والسدى في اللغة المهمل يقال: أسديت إبلي إسداء أهملتها.

واعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣] أعاد في آخر السورة ذلك، وذكر في صحة البعث والقيامة دليلين: الأول: قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] ونظيره قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥] وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] وتقريره أن إعطاء القدرة والآلة والعقل بدون التكليف والأمر بالطاعة والنهي عن المفاسد يقتضي كونه تعالى راضيًا بقبائح الأفعال، وذلك لا يليق بحكمته، فإذًا لا بد من التكليف والتكليف لا يحسن ولا يليق بالكريم الرحيم إلا إذا كان هناك دار الثواب والبعث والقيامة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

الدليل الثاني: على صحة القول بالحشر الاستدلال بالخلقة الأولى على الإعادة، وهو المراد من قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: النطفة هي الماء القليل وجمعها نطاف ونطف، يقول: ألم يك ماء قليلاً في صلب الرجل وترائب المرأة؟ وقوله: ﴿مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي يصب في الرحم، وذكرنا الكلام في يمنى عند قوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٦] وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨] فإن قيل: ما الفائدة في يمنى في قوله: ﴿مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾؟ قلنا: فيه إشارة إلى حقارة حاله، كأنه قيل: إنه مخلوق من المني الذي جرى على مخرج النجاسة، فلا يليق بمثل هذا الشيء أن يتمرد عن طاعة الله تعالى إلا أنه عبر عن هذا المعنى، على سبيل الرمز كما في قوله تعالى في عيسى ومريم: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] والمراد منه قضاء الحاجة.

المسألة الثانية: في يمنى في هذه السورة قراءتان التاء والياء، فالتاء للنطفة، على تقدير ألم يك نطفة تمنى من المني، والياء للمني من مني يمنى، أي يقدر خلق الإنسان منه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي الإنسان كان علقة بعد النطفة.

أما قوله تعالى: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ففيه وجهان: الأول: فخلق فقدر فسوى فعدَّل، الثاني: فخلق، أي فنفخ فيه الروح، فسوى فكمل أعضاءه، وهو قول ابن عباس ومقاتل.

ثم قال تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ﴾ أي من الإنسان ﴿ ٱلزَّوْجَيْنِ ﴾ يعني الصنفين.

ثم فسرهما فقال: ﴿ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ والمعنى أليس ذلك الذي أنشأ هذه الأشياء بقادر على الإعادة، روي أنه ﷺ كان إذا قرأها قال: «سُبْحَانَكَ بَلَى»[1] والحمد لله رب العالمين. وصلاته على سيدنا محمد سيد المرسلين وآله وصحبه وسلم.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة) باب (مقدار الركوع والسجود) (١/ ٣٩٢) حديث رقم (٨٨٧) والترمذي في كتاب (تفسير القرآن) باب (من سورة التين) (٥/ ٤١٣) حديث رقم (٣٣٤٧) وقال الترمذي فيه (هذا حديث حسن) وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٤٩) جميعا من طريق سفيان. . . به وضعفه الألباني وقال في (المشكاة) إسناده ضعيف لم يسم (١/ ٢٧٢) ورواه البيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٣٧٧) حديث رقم (٢١٠٠).

سورة القيامة

مَكِّيَّةٌ، وهي تسع وثلاثون آية(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ① وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ② أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ③ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ④ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ⑤ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ⑥﴾

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قيل: إن «لا» صلة، وجاز وقوعها في أوَّل السورة؛ لأن القرآن متصلٌ بعضُه ببعض، فهو في حكم كلام واحد، ولهذا قد يُذكَر الشيء في سورة ويجيء جوابه في سورة أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر:٦]، وجوابُه في سورة أخرى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾(٢) [القلم:٢]. ومعنى الكلام: أقسم بيوم القيامة. قاله ابن عباس وابن جبير وأبو عبيدة(٣). ومثلُه قول الشاعر:

تذكَّرتُ ليلى فاعترتني صَبابةٌ ... فكاد صميمُ القلبِ لا يَتَقَطَّعُ(٤)

وحكى أبو الليث السَّمرقنديُّ(٥): أجمع المفسرون أن معنى «لَا أُقْسِمُ»: أقسم. واختلفوا في تفسير «لا» قال بعضهم: «لا» زيادة في الكلام للزينة، ويجري في كلام

---

(١) الكشاف للزمخشري ٤/ ١٨٩، وذكر غيره أنها أربعون آية.

(٢) ينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٢٧٧، وأخرج قول ابن جبير الطبري ٢٣/ ٤٦٦، وأورد قول ابن عباس الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٥٠.

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٥٠، وفيه: ضمير، بدل: صميم - وقوله: صبابة، أي: شوق. القاموس (صبب).

(٥) في تفسيره ٣/ ٤٢٥.

العرب زيادةُ «لا»، كما قال في آية أخرى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] يعني أن تسجد. وقال بعضهم: «لا» ردٌّ لكلامهم حيث أنكروا البعث، فقال: ليس الأمر كما زعمتم.

قلت: وهذا قول الفرَّاء؛ قال الفرَّاء[١]: وكثير من النَّحْويين يقولون: «لا» صِلة، ولا يجوز أن يُبدأ بجحد ثم يُجعل صلة؛ لأن هذا لو كان كذلك لم يُعرف خبرٌ فيه جحدٌ مِن خبر لا جحدَ فيه، ولكنَّ القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار، فجاء الإقسام بالردِّ عليهم، وذلك كقولهم: لا والله لا أفعل، فـ «لا» ردٌّ لكلام قد مضى، وذلك كقولك: لا والله إن القيامة لحقٌّ، كأنك أكذبت قومًا أنكروه. وأنشد غير الفرَّاء لامرئ القيس:

فـلا وأبـيـكِ ابـنـةَ الـعـامِـريِّ لا يَـدَّعـي الـقـومُ أنّـي أفِـرّْ[٢]

وقال غُوَيَّة بن سُلْميّ:

ألا نـادتْ أمـامـةُ بـاحـتـمـال لِـتَـحـزُنَـنـي فـلا بِـكِ مـا أبـالـي[٣]

وفائدتها توكيد القسم في الردّ. قال الفرّاء: وكانَ من لا يعرف هذه الجهة يقرأ: «لَأقسِمُ» بغير ألف، كأنها لامُ تأكيد دخلت على أقسم، وهو صواب؛ لأن العرب تقول: لَأقسم بالله[٤] وهي قراءة الحسن وابنِ كثير والزُّهريِّ وابن هُرْمز[٥].

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٧ .

(٢) ديوان امرئ القيس ص ١٥٤ .

(٣) أورده المرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٢/ ١٠٠١ ، والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٨٩ . ومعنى البيت كما في شرح ديوان الحماسة: يقول الشاعر: أظهرت هذه المرأة من نفسها ارتحالاً عني لتجلب عليَّ حزناً وغماً، ونادت بالفراق وكثرته على ألسنة الناس. ثم انصرف عن الإخبار عنها وأقبل عليها يخاطبها فقال: لا بِكِ ما أبالي. اهـ. وغُوَيَّة - ويقال: عُويَّة، بالعين - هو ابن سُلْميّ بن ربيعة بن ذَبَّان ابن عامر بن ثعلبة الضبي، من بني ثعلبة بن ذؤيب، جاهلي. معجم الشعراء للمرزباني ص ١٧٥ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٧ .

(٥) قراءة ابن كثير في السبعة ص ٦٦١ ، والتيسير ص ٢١٦ ، وقراءة الحسن في المحتسب ٢/ ٣٤١ ، وقراءة ابن هرمز وهو الأعرج في تفسير الطبري ٢٣/ ٤٦٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٧٧ .

﴿بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: بيوم يقوم الناس فيه لربِّهم، ولله عز وجل أن يُقسم بما شاء.

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ لا خلاف في هذا بين القراء، وهو أنه أقسم سبحانه بيوم القيامة تعظيمًا لشأنه. وعلى قراءة ابن كثير أقسم بالأولى ولم يُقسم بالثانية. وقيل: «ولا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ» ردٌّ آخرُ، وابتداءُ قسمٍ بالنفس اللوَّامة، قال الثعلبيُّ: والصحيح أنه أقسم بهما جميعًا[1].

ومعنى: «بالنَّفْسِ اللوَّامَةِ» أي: بنفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول: ما أردتُ بكذا؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه. قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم. قال الحسن: هي والله نفسُ المؤمن، ما يُرَى المؤمن إلا يلوم نفسه: ما أردتُ بكلامي؟ ما أردتُ بأكلي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟ والفاجر لا يحاسب نفسه[2]. وقال مجاهد: هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر: لِمَ فعلته؟ وعلى الخير: لِمَ لا تستكثر منه[3]؟ وقيل: إنها ذاتُ اللَّوم. وقيل: إنها تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرَها؛ فعلى هذه الوجوه تكون اللَّوَّامة بمعنى اللائمة، وهو صفةُ مدح، وعلى هذا يجيء القسم بها سائغًا حسنًا[4]. وفي بعض التفسير: إنه آدمُ عليه السلام لم يَزَل لائمًا لنفسه على معصيته التي أُخرج بها من الجنة[5].

وقيل: اللَّوَّامة بمعنى المَلُومة المذمومة، عن ابن عباس أيضاً[6]. فهي صفة ذمٍّ وهو قولُ مَن نفى أن يكون قسمًا، إذ ليس للعاصي خَطَرٌ يُقْسَم به، فهي كثيرةُ اللَّوم. وقال مقاتل: هي نفس الكافر يلوم نفسه، ويتحسَّر في الآخرة على ما فرَّطَ في جنب

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٢١ دون نسبة، واختاره ابن جرير الطبري في تفسيره ٢٣/ ٤٦٨ .

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٨٧ لعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٥١ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٢ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٥١ ، وزاد المسير ٨/ ٤١٦ .

الله[١]. وقال الفراء[٢]: ليس مِن نفسٍ محسنةٍ أو مسيئةٍ إلا وهي تلوم نفسها؛ فالمحسنُ يلوم نفسه أن لو كان ازداد إحسانًا، والمسيءُ يلوم نفسه ألا يكون ارعوى عن إساءته.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ فنعيدها خلقًا جديداً بعد أن صارت رُفاتًا؟[٣] قال الزجاج[٤]: أقسمَ بيوم القيامة وبالنفس اللَّوَّامة: لَيَجمعنَّ العظام للبعث، فهذا جواب القسم. وقال النحاس: جواب القسم محذوف، أي: لتُبْعثُنَّ، ودلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ لِلإحياء والبعث؟ والإنسانُ هنا الكافر المكذِّب بالبعث[٥].

والآيةُ نزلت في عديِّ بن ربيعة قال للنبيِّ ﷺ: حدِّثني عن يوم القيامة متى تكون، وكيف أمرُها وحالُها؟ فأخبره النبيُّ ﷺ بذلك، فقال: لو عاينتُ ذلك اليوم لَمْ أُصَدِّقك يا محمدُ ولم أؤمن بك، أوَيجمع الله العظام؟! ولهذا كان النبيُّ ﷺ يقول: «اللهمَّ اكفني جارَيِ السُّوءِ عديَّ بنَ ربيعة، والأخنسَ بنَ شَرِيق»[٦]. وقيل: نزلت في عدوِّ الله أبي جهلٍ حين أنكر البعث بعد الموت[٧]. وذَكَر العظام والمراد نفسُه كلُّها؛ لأن العظام قالَب الخَلْق[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٢١، والكشاف ٤/ ١٩٠.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٨.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٥١.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٢٥١.

(٥) في (م): للبعث.

(٦) أسباب النزول ص ٤٧٧، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢١، والكشاف ٤/ ١٩٠، وأخرجه الثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٨٠.

(٧) نسب هذا القول ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤١٦، والرازي في تفسيره ٣٠/ ٢١٧ لابن عباس.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٤٢١.

﴿بَلَىٰ﴾ وقفٌ حَسَنٌ ثم تبتدئ: ﴿قَٰدِرِينَ﴾[(١)]. قال سيبويه: على معنى: [بلى] نجمعها قادرين[(٢)]، فـ«قادرين» حال من الفاعل المضمَر في الفعل المحذوف على ما ذكرناه من التقدير. وقيل: المعنى: بلى نقِدر قادرين. قال الفراء: «قادرين» نصب على الخروج من «نَجْمَع»، أي: نقِدر ونَقْوى «قادرين» على أكثرَ من ذلك[(٣)]. وقال أيضاً: يصلُح نصبه على التكرير، أي: «بَلَى» فَلْيحسبْنا قادرين[(٤)]. وقيل: المضمر (كنا)، أي: كنا قادرين في الابتداء، وقد اعترف به المشركون. وقرأ ابن أبي عَبْلة وابنُ السَّمَيْفَع: «بَلَى قَادِرُونَ»[(٥)] بتأويل: نحن قادرون.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ البنان عند العرب: الأصابع، واحدُها بَنانة، قال النابغة:

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بَنانَهُ عَنَمٌ يَكادُ مِنَ اللَّطافةِ يُعْقَدُ[(٦)]

وقال عنترة:

وأنَّ الموتَ طَوْعُ يدي إذا ما وَصَلْتُ بَنانَها بِالْهِنْدُواني[(٧)]

فنبَّه بالبنان على بقية الأعضاء. وأيضاً فإنها أصغرُ العظام، فخصَّها بالذكر لذلك. قال القتبيُّ والزجاج: وزعموا أن الله لا يبعث الموتى ولا يقدِر على جمع العظام، فقال الله تعالى: بلى قادرين على أن نعيد السُّلاميَّات على صغرها، ونؤلِّفَ بينها حتى تستوي، ومَن قَدَر على هذا، فهو على جمع الكبار أقدر[(٨)].

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٥٧.

(٢) الكتاب ١/ ٣٤٦، وما بين حاصرتين منه.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٨.

(٤) ذكر هذا القول ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤١٧ ولم ينسبه.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٨٥.

(٦) ديوان النابغة الذبياني ص ٤٠، والعَنَم: شجر لين الأغصان لطيفها، يشبه به البنان. اللسان (عنم).

(٧) ديوان عنترة ص٧٢، وسلف ٣/ ٩٢.

(٨) تأويل مشكل القرآن للقتبي ص ٢٦٩، وذكر قول الزجاج الواحديُّ في الوسيط ٤/ ٣٩١، والبغوي في تفسيره ٤/ ٤٢١، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤١٨، وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٥١.

وقال ابن عباس وعامة المفسرين: المعنى «عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ»، أي: نجعل أصابع يديه ورجليه شيئًا واحداً كَخُفِّ البعير، أو كحافر الحمار، أو كظِلْف الخنزير، ولا يمكنه أن يعمل به شيئًا، ولكنَّا فرَّقنا أصابعه حتى يأخذ بها ما شاء[(١)].

وكان الحسن يقول: جعل لك أصابع فأنت تَبْسُطهنَّ، وتَقْبِضُهن[(٢)]، ولو شاء الله لجمعهنَّ؛ فلم تَتَّقِ الأرض إلا بكفيك[(٣)].

وقيل: أي: نقدر أن نعيد الإنسان في هيئة البهائم، فكيف في صورته التي كان عليها، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠-٦١].

قلت: والتأويل الأوَّل أشبه بمساق الآية. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ قال ابن عباس: يعني الكافرَ يكذِّب بما أمامه من البعث والحساب. وقاله عبد الرحمن بن زيد[(٤)]؛ ودليله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: يسأل متى يكون؟! على وجه الإنكار والتكذيب. فهو لا يقنع بما هو فيه من التكذيب، ولكن يأثم[(٥)] لِمَا بين يديه. ومما يدلُّ على أن الفجور التكذيب ما ذكره القُتَبيُّ وغيرُه: أن أعرابيًّا قصد عمر بن الخطاب ﷺ وشكا إليه نَقْب إبله ودَبَرها[(٦)]، وسَأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله، فقال الأعرابيّ:

أَقْسَمَ بالله أبو حفصٍ عُمَرْ ما مَسَّها من نَقَبٍ ولا دَبَرْ
فاغفِر له اللَّهمَّ إن كان فَجَرْ

---

(١) أخرج قول ابن عباس عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٣٣، والطبري ٢٣/ ٤٧١، وينظر النكت والعيون ٦/ ١٥٢، والوسيط ٤/ ٣٩١، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢١، والكشاف ٤/ ١٩٠، وزاد المسير ٨/ ٤١٧.

(٢) في (ظ): وتقبض بهن، وفي (م): وتقبضهن بهن.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٧٢، وفيه: فأنقيت الأرض بفيك، بدل: فلم تتق الأرض إلا بكفيك.

(٤) أخرج قولهما الطبري ٢٣/ ٤٧٧.

(٥) في (د): يأتمر.

(٦) النَّقْب: قرحةٌ تخرج في الجنب، والجربُ. والدَّبَر: قرحة الدابة. القاموس (نقب) و(دبر).

يعني إن كان كذَّبني فيما ذكرت[١]. وعن ابن عباس أيضًا: يعجِّل المعصية ويسوِّف التوبة[٢]. وفي بعض الحديث قال: يقول: سوف أتوب ولا يتوب، فهو قد أخلف فكذب. وهذا قول مجاهد والحسنِ وعِكرمَة والسُّدِّيِّ وسعيدِ بن جبير، يقول: سوف أتوب، سوف أتوب، حتى يأتيَه الموت على أشرِّ أحواله[٣]. وقال الضحاك: هو الأمل يقول: سوف أعيش وأصيب من الدنيا ولا يذكر الموت[٤]. وقيل: أي يعزِم على المعصية أبدًا وإن كان لا يعيش إلا مدَّة قليلة. فالهاء على هذه الأقوال للإنسان.

وقيل: الهاء ليوم القيامة، والمعنى: بل يريد الإنسان ليكفر بالحقِّ بين يدي يوم القيامة[٥]. والفجورُ: أصلُه الميلُ عن الحقِّ.

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: متى يومُ القيامة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ قرأ نافع وأبان عن عاصم: «بَرَقَ» بفتح الراء[٦]، معناه: لَمَعَ بصره من شدَّة شخوصه، فتراه لا يَطْرِف. قال مجاهد وغيره: هذا عند الموت. وقال الحسن: هذا يوم القيامة[٧]. وقال: فيه معنى الجواب عما سأل عنه

---

(١) تأويل مشكل القرآن للقتبي ص ٢٧٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٥٢.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٧٧ - ٤٧٨.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٢١ - ٤٢٢، وأخرج قول سعيد بن جبير الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٠٨، والطبري ٢٣/ ٤٧٦.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٧٦.

(٥) تفسير الطبري ٢٣/ ٢٧٧.

(٦) قراءة نافع في السبعة ص ٦٦١، والتيسير ص ٢١٦، ورواية أبان عن عاصم في السبعة. وقراءة عاصم المشهورة عنه: بَرِقَ، بكسر الراء.

(٧) أخرج قول مجاهد والحسن الطبري ٢٣/ ٤٨٠.

الإنسان كأنه قال(١): يوم القيامة «إِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ وخَسَفَ الْقَمَرُ».

والباقون بالكسر: «بَرِقَ»، ومعناه: تحيَّر فلم يَطرِف. قاله أبو عمرو والزجاج(٢) وغيرهما. قال ذو الرُّمَّة:

ولو أنَّ لُقْمَانَ الحكيمَ تَعَرَّضَتْ لِعينيه مَيٌّ سافِرًا كاد يَبْرَقُ(٣)

الفرّاء والخليل: «بَرِقَ» بالكسر: فَزِع وبُهِت وتَحيَّر(٤). والعرب تقول للإنسان المتحيِّر المبهوت: قد بَرِق فهو بَرِقٌ، وأنشد الفرَّاء:

فَنَفْسَكَ فانْعَ ولا تَنْعَني وداوِ الكُلُومَ ولا تَبْرَقِ(٥)

أي: لا تَفزَع من كثرة الكُلُوم التي بك. وقيل: بَرِقَ يَبرَق بالفتح: شقَّ عينيه وفتَحهما. قاله أبو عبيدة(٦)، وأنشد قول الكلابيّ:

لَمَّا أتاني ابنُ عُمَيرٍ راغِبًا أعطيتُه عِيسًا صِهابًا فبَرَقْ(٧)

أي: فتح عينيه. وقيل: إنَّ كَسْرَ الراء وفتحَها لغتان بمعنًى.

قوله تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي: ذهب ضوؤه(٨). والخسوفُ في الدنيا إلى انجلاء، بخلاف الآخرة، فإنه لا يعود ضوؤه. ويحتمل أن يكون بمعنى غاب؛ ومنه

---

(١) لفظة: قال، ليست في (م).

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٥٢، وأخرج قول أبي عمرو الطبري ٢٣/ ٤٧٨ - ٤٧٩ بلفظ: (بَرِق) بالكسر، بمعنى: حار.

(٣) ديوان ذي الرُّمَّة ١/ ٤٦١، وقوله: سافراً، قال شارح الديوان: يعني بارزة الوجه مسفرته.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٩، وكتاب العين للخليل ٥/ ١٥٦.

(٥) البيت لطَرَفَة وهو في ديوانه ص ٧٠، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٩.

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ٢٧٧.

(٧) أورده غير أبي عبيدة ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ٥٢ ولم ينسبه، والطبري ٢٣/ ٤٧٩ ونسبه للكلابي. ووقع عند أبي عبيدة والطبري: ابن صبيح، بدل: ابن عمير. ووقع أيضاً عند ابن السكيت والطبري: عيساء منها، بدل: عيساً صهاباً. والعيس الصهاب: الإبل البيض يخالط بياضها شقرة. القاموس (عيس)، وينظر (صهب).

(٨) الوسيط ٤/ ٣٩١، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢٢.

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والأعرج: «وَخُسِفَ القَمَرُ» بضمِّ الخاء وكسر السين؛ يدل عليه: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾(١). وقال أبو حاتم محمد بن إدريس: إذا ذهب بعضه فهو الكسوف، وإذا ذهب كلُّه فهو الخسوف.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي: جُمِع بينهما في ذهاب ضوئهما، فلا ضوءَ للشمس كما لا ضوءَ للقمر بعد خسوفه. قاله الفراء والزجاج(٢). قال الفراء(٣): ولم يقل: جُمِعتْ؛ لأن المعنى: جُمِع بينهما. وقال أبو عبيدة: هو على تغليب المذكر(٤). وقال الكسائيُّ: هو محمول على المعنى، كأنه قال: الضوءان. المبرد: التأنيث غيرُ حقيقي(٥).

وقال ابن عباس وابن مسعود: جُمِع بينهما، أي: قُرِن بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مُكوَّرين مظلِمين مُقْرَنَيْن، كأنهما ثوران عَقيران. وقد مضى الحديث بهذا المعنى في آخر سورة الأنعام(٦). وفي قراءة عبد الله: «وجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ والقَمَرِ»(٧). وقال عطاء بن يسار: يُجمَعُ بينهما يوم القيامة ثم يُقذفان في البحر، فيكونان نارَ الله الكبرى(٨).

وقال علي وابن عباس: يُجعلان في [نور] الحُجُب(٩).

---

(١) ذكر هذه القراءة الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩١ ولم ينسبها، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٣ ونسبها لأبي حيوة.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٩، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٥٢.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٩.

(٤) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٧٧.

(٥) ينظر قول الكسائي والمبرد في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٨١، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٧٧-٧٧٨.

(٦) ٩/ ١٢٨ - ١٢٩.

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٩، والطبري ٢٣/ ٤٨١.

(٨) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٨٢.

(٩) أورده أبو الليث في تفسيره ٣/ ٤٢٦ عن علي ﷺ وما بين حاصرتين منه.

وقد يُجمعان في نار جهنم[(١)]؛ لأنهما قد عُبِدا من دون الله، ولا تكون النار عذابًا لهما لأنهما جماد، وإنما يُفعَل ذلك بهما زيادةً في تبكيت الكافرين وحسرَتِهم. وفي مسند أبي داود الطيالسيِّ، عن يزيدَ الرَّقاشيِّ، عن أنس بن مالك يرفعه إلى النبيِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر ثوران عَقيران في النار»[(٢)].

وقيل: هذا الجمع أنهما يجتمعان ولا يفترقان، ويُقرَّبان من الناس، فيلحقُهم العرق لشدَّة الحر؛ فكأن المعنى: يجمع حَرُّهما عليهم. وقيل: يُجمع الشمس والقمر، فلا يكون ثَمَّ تعاقُب ليل ولا نهار.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي: يقول ابن آدم ـ ويقال: أبو جهل ـ أي: أين المهرب؟ قال الشاعر:

أيـن الـمـفـرُّ والـكِـبـاشُ تَـنـتـطِـحْ وأيُّ كَبْشٍ حاد عنها يَفْتَضِحْ[(٣)]

الماورديُّ[(٤)]: ويحتمل وجهين: أحدهما: أَيْنَ المَفرُّ من الله استحياءً منه. الثاني: أَيْنَ المَفَرُّ من جهنم حذرًا منها. ويحتمل هذا القول من الإنسان وجهين: أحدهما: أن يكون من الكافر خاصَّةً في عَرْصة[(٥)] القيامة دون المؤمن؛ لثقة المؤمن ببشرى ربه. الثاني: أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا منها.

وقراءة العامة: «المَفَرُّ» بفتح الفاء واختاره أبو عبيد[(٦)] وأبو حاتم؛ لأنه مصدر. وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة بكسر الفاء مع فتح الميم[(٧)]؛ قال الكسائي:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٢.

(٢) مسند أبي داود الطيالسي (٢١٠٣) وقد رواه عن درست بن زياد، عن يزيد بن أبان الرقاشي، به. ودرست ويزيد ضعيفان، كما في تقريب التهذيب.

(٣) أورده الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٥٣ وفيه: أفرّ، بدل: المفرّ.

(٤) في النكت والعيون ٦/ ١٥٣.

(٥) في (خ) و(م): عرضة.

(٦) في (م): أبو عبيدة.

(٧) القراءات الشاذة ص ١٦٥، وفيه أن الحسن هو ابن يزيد، والمحتسب ٢/ ٣٤١، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٠٣.

هما لغتان؛ مثل: مَدَبّ ومَدِبّ، ومَصَحّ ومَصِحّ. وعن الزُّهريِّ بكسر الميم وفتح الفاء[١]؛ المهدويّ: مَن فتح الميم والفاء من «المفرّ»؛ فهو مصدر بمعنى الفِرار، ومَن فتح الميم وكسر الفاء، فهو الموضع الذي يفرُّ إليه، ومَن كسر الميم وفتح الفاء؛ فهو الإنسان الجيِّد الفرار؛ فالمعنى: أين الإنسان الجيِّد الفِرار؟! ولن ينجو مع ذلك.

قلت: ومنه قول امرئ القيس:

مِـكَـرٍّ مِـفَـرٍّ مُـقْـبِـلٍ مُـدْبِـرٍ مَـعًـا[٢]

يريد أنه حَسَن الكرِّ والفرِّ جَيِّدُه.

﴿كَلَّا﴾ أي: لا مفرَّ، فـ «كَلَّا» ردٌّ، وهو من قول الله تعالى، ثم فسر هذا الردَّ فقال: ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي: لا ملجأ من النار. وكان ابن مسعود يقول: لا حِصن. وكان الحسن يقول: لا جبل. وابن عباس يقول: لا ملجأ. وابن جُبير: لا محيصَ ولا منعة[٣]. والمعنى في ذلك كلِّه واحد. والوَزَر في اللغة: ما يُلجأ إليه من حِصن أو جبل أو غيرهما؛ قال الشاعر:

لَـعَـمْـريَ مـا لِـلْـفـتـى مِـن وَزَرْ ... مِـنَ الـمـوتِ يُـدْرِكُـه والـكِـبَـرْ[٤]

قال السُّدِّيُّ: كانوا في الدنيا إذا فزِعوا، تحصَّنوا في الجبال، فقال الله لهم: لَا وَزَرَ يعصمكم يومئذ منِّي[٥]، قال طَرَفة:

وَلَـقَـدْ تَـعْـلَـمُ بَـكْـرٌ أَنَّـنَـا ... فـاضِـلُـوا الـرَّأْيِ وفـي الـرَّوْعِ وَزَرْ[٦]

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٤١، وجاء في القراءات الشاذة ص ١٦٥ أن الزهري قرأ: المَفِرّ، بكسر الفاء وفتح الميم.

(٢) ديوان امرئ القيس ص ١٩، وهو صدر بيت، وعجزه: كجلمود صخر حطه السيل من علِ.

(٣) أخرج الأقوال السالفة عدا قول ابن جبير الطبري ٢٣/ ٤٨٤ - ٤٨٧، وقول ابن جبير في النكت والعيون ٦/ ١٥٤.

(٤) أورده أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٨٢، والسمين الحلبي في الدر المصون ١٠/ ٥٧٠، والألوسي في روح المعاني ٢٩/ ١٤٠ ولم ينسبوه، وجاء فيها: لعمرك، بدل: لعمري.

(٥) أورده البغوي في تفسيره ٤/ ٤٢٢.

(٦) ديوان طرفة ص٥٦، وفيه: وُقُر، بدل: وَزَرْ.

أي: ملجأ للخائف. ويُروى: وُقُرٌ.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي: المنتهى. قاله قتادة[١]. نظيره: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. وقال ابن مسعود: إلى ربك المصير والمرجع[٢]. وقيل: أي: المستقرُّ في الآخرة حيث يُقرُّه الله تعالى، إذ هو الحاكم بينهم. وقيل: إن «كَلَّا» مِن قول الإنسان لنفسه، إذا علم أنه ليس له مفرٌّ قال لنفسه: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾.

قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يُخبَر ابن آدم بَرًّا كان أو فاجرًا ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي: بما أسلف من عمل سَيِّئ أو صالح، أو أخَّر من سنَّة سيِّئة أو صالحة يُعْمَل بها بعده. قاله ابن عباس وابن مسعود[٣]. وروى منصور عن مجاهد قال: ينبَّأُ بأوَّل عمله وآخره. وقاله النَّخعيّ. وقال ابن عباس أيضاً: أي: بما قدَّم من المعصية، وأخَّر من الطاعة[٤]. وهو قول قتادة[٥]. وقال ابن زيد: «بِمَا قَدَّمَ» من أمواله لنفسه، «وَأَخَّرَ»: خلَّف للورثة[٦]. وقال الضحاك: ينبَّأُ بما قدَّم من فرضٍ، وأخَّر من فرض[٧].

قال القشيريُّ: وهذا الإنباء يكون في القيامة عند وزن الأعمال. ويجوز أن يكون عند الموت.

قلت: والأوَّل أظهر؛ لما خرجه ابن ماجه في سننه[٨] من حديث الزُّهريِّ، حدثني أبو عبد الله الأغرّ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مما يَلْحق

---

(١) أخرجه عنه الطبري ٢٣/ ٤٨٨.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٢.

(٣) المصدر السابق، وأخرج قولهما الطبري ٢٣/ ٤٨٩.

(٤) أخرج الأقوال السالفة الطبري ٢٣/ ٤٨٩ - ٤٩٠.

(٥) أورده الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٥٤.

(٦) الوسيط ٤/ ٣٩٢، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٠٤، وزاد المسير ٨/ ٤٢٠ ونسبوه لزيد بن أسلم.

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٥٤، وزاد المسير ٨/ ٤٢٠.

(٨) برقم (٢٤٢).

المؤمنَ من عمله وحسناته بعد موته علماً علَّمه ونَشَره، وولدًا صالحًا تركه، أو مصحفًا ورَّثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته[١] تلحقه من بعد موته».

وخرَّجه أبو نُعيم الحافظ بمعناه[٢] من حديث قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «سبع يجري أجرُهنَّ للعبد بعد موته وهو في قبره: مَن علَّم علماً، أو أجرى[٣] نهرًا، أو حفر بئرًا، أو غرس نخلًا، أو بنى مسجدًا، أو وَرَّثَ مصحفًا، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته». فقوله: «بعد موته وهو في قبره» نصٌّ على أن ذلك لا يكون عند الموت، وإنما يُخبَر بجميع ذلك عند وزن عمله، وإن كان يُبشَّر بذلك في قبره. ودلَّ على هذا أيضاً قولُه الحقُّ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقولُه تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] وهذا لا يكون إلا في الآخرة بعد وزن الأعمال. والله أعلم.

وفي الصحيح: «مَن سنَّ في الإسلام سنَّة حسنةً؛ كان له أجرُها وأجرُ من عمل بها بعده مِن غير أن يَنقُص من أجورهم شيء. ومَن سنَّ في الإسلام سنة سيئةً؛ كان عليه وزرُها ووزرُ مَن عمل بها بعده، مِن غير أن يَنقُص من أوزارهم شيء»[٤].

قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ قال الأخفش: جَعَلَه هو البصيرة، كما تقول للرجل: أنت حجَّةٌ على نفسك[٥]. وقال ابن عباس: «بصيرَةٌ» أي: شاهد، وهو شهودُ جوارحِه عليه: يداه بما بَطَش بهما، ورجلاه بما مشى عليهما، وعيناه بما أبصر

(١) لفظة: وحياته، من (م) وسنن ابن ماجه.
(٢) في حلية الأولياء ٢/ ٣٤٤.
(٣) في النسخ الخطية: أو أكرى، والمثبت من (م) وحلية الأولياء.
(٤) قطعة من حديث جرير بن عبد الله ﷺ أخرجه مسلم (١٠١٧): (٦٩)، وسلف ٢/ ٣٣٦.
(٥) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٢١.

بهما[1]. والبصيرة: الشاهد. وأنشد الفرَّاء:

كأنَّ على ذي العقلِ عَيْنًا بصيرةً بِمَقْعَدِهِ أو مَنْظَرٍ هو ناظِرُهْ
يُحاذِرُ حتى يَحسِبَ الناسَ كلَّهمْ من الخوفِ لا تَخْفَى عليهم سَرائِرُهْ[2]

ودليلُ هذا التأويل من التنزيل قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وجاء تأنيث البصيرة لأن المراد بالإنسان ها هنا الجوارحُ، لأنها شاهدة على نفس الإنسان، فكأنه قال: بل الجوارحُ على نفس الإنسان بصيرة. قال معناه القتبيُّ[3] وغيره. وناس يقولون: هذه الهاء في قوله: «بَصِيرَةٌ» هي التي يسمِّيها أهل الإعراب هاءَ المبالغة، كالهاء في قولهم: داهِية، وعلَّامة، وراوية. وهو قول أبي عُبيدة[4].

وقيل: المراد بالبصيرة: الكاتبان اللَّذان يكتبان ما يكون منه من خير أو شرٍّ، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ فيمن جعل المعاذير السُّتور. وهو قول السُّدِّيِّ والضحاك[5].

وقال بعض أهل التفسير: المعنى: بل على الإنسان من نفسه بصيرةٌ، أي: شاهد، فحذف حرف الجر[6].

ويجوز أن يكون «بصيرة» نعتًا لاسم مؤنث، فيكون تقديره: بل الإنسان على نفسه عينٌ بصيرة[7]، وأنشد الفراء:

---

(١) أخرجه عنه الطبري ٢٣/ ٤٩١ - ٤٩٢ مختصراً.

(٢) البيتان للفرزدق وهما في ديوانه ص ٢٠٩ ، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢١١ ، ووقع في الديوان: الطِّنْء، بدل العقل. وفي معاني القرآن: الظَّن. والطِّنْء هو الريبة. القاموس (طنأ).

(٣) في تأويل مشكل القرآن ص ١٤٨ .

(٤) في (د) و(م) و(ي): أبي عبيد، والمثبت من (خ) و(ظ) والكلام في مجاز القرآن له ٢/ ٢٧٧ .

(٥) الوسيط ٤/ ٣٩٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٠٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢٣ ، وزاد المسير ٨/ ٤٢٠ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١١ .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٣ .

كأنَّ على ذِي العقل عينًا بصيرةً

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ أي: بصيرٌ بعيوب غيره، جاهلٌ بعيوب نفسه(١).

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي: ولو أرْخَى سُتوره. والسِّتر بلغة أهل اليمن: مِعذار. قاله الضحاك. وقال الشاعر:

ولكنها ضَنَّتْ بِمَنزلِ ساعةٍ … علينا وأَطَّتْ فَوْقَها بالمَعَاذِرِ(٢)

قال الزَّجَّاج: المعاذِر: السُّتور، والواحد مِعذار(٣)، أي: وإن أرخى ستره يريد أن يخفيَ عمله، فنفسُه شاهدة عليه.

وقيل: أي: ولو اعتذر فقال: لم أفعل شيئاً، لكان عليه من نفسه مَن يشهد عليه من جوارحه، فهو وإن اعتذر وجادل عن نفسه، فعليه شاهدٌ يكذِّب عذره. قاله مجاهد، وقتادة، وسعيدُ بن جُبير، وعبدُ الرحمن بن زيد، وأبو العالية، وعطاء(٤)، والفرَّاء(٥) والسُّدِّيُّ أيضًا ومقاتل. قال مقاتل: أي: لو أدلى بعذر أو حجة لم ينفعه ذلك. نظيرُه قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢]، وقولُه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]، فالمعاذيرُ على هذا مأخوذٌ من العذر، قال الشاعر:

وإيَّاكَ والأمرَ الذي إنْ تَوسَّعَتْ … مَوَارِدُهُ ضاقَتْ عليكَ المصادِرُ
فما حَسَنٌ أن يَعْذِرَ المرءُ نفسَهُ … وليس له مِن سائِرِ الناسِ عاذِرُ(٦)

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٢٦ ، وسلف الشعر قريباً.
(٢) النكت والعيون ٦/ ١٥٥ .
(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٥٣ .
(٤) أخرج قول مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد الطبري ٢٣/ ٤٩٤ - ٤٩٦ ، وأورد قول عطاء البغوي في تفسيره ٤/ ٤٢٣ .
(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢١١ .
(٦) البيتان في شرح ديوان الحماسة ٣/ ٨٩ ، والبيت الأول في دُرَّة الغوَّاص ص٢٩ .

واعتذر رجل إلى إبراهيمَ النَّخَعيِّ فقال له: قد عذرتك غير مُعتذِر، إن المعاذير يَشُوبها الكذب(١). وقال ابن عباس: «وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ» أي: لو تجرَّد من ثيابه. حكاه الماورديُّ(٢).

قلت: والأظهر أنه الإدلاء بالحجة والاعتذارُ من الذَّنب، ومنه قول النابغة:

هـا إنَّ ذِي عِـذْرَةٌ إلَّا تـكُـنْ نَـفَـعـتْ ... فـإنَّ صـاحِـبَـهـا مُـشَـارِكُ الـنَّـكَـدِ(٣)

والدليل على هذا قولُه تعالى في الكفار: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقولُه تعالى في المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]. وفي الصحيح أنه يقول: «يا ربِّ آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك، وصلَّيت وصمتُ وتصدَّقتُ، ويُثني بخيرٍ ما استطاع» الحديث، وقد تقدَّم في «حم السجدة» وغيرِها(٤). والمعاذيرُ والمعاذِر: جمع مَعْذِرة، ويقال: عَذَرته فيما صنع أعذِره عُذْرًا وعُذُرًا، والاسم المَعْذِرة والعُذْرى، قال الشاعر:

إنِّـي حُـدِدْتُ ولا عُـذْرِي لِـمَـحْـدُودِ(٥)

---

(١) الصحاح (عذر)، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٦٥)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢٢٤ عن ابن عون.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ١٥٥، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٤٩٥.

(٣) ديوان النابغة الذبياني ص ٣٧.

(٤) هو قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه مسلم (٢٩٦٨)، وسلف ٨/ ٣٤١، وليس في سورة حم السجدة.

(٥) الصحاح (عذر)، وأورده أيضاً أبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال ٢/ ٢١٠، دون نسبة، والبغدادي في الخزانة ١/ ٤٦٤ ونسبه للجموح الظَّفَري، ووقع عندهما: لولا، بدل: إني. قال ابن منظور في اللسان (عذر): وصواب إنشاده: لولا حددت، هو على إرادة أن تقديره: لولا أن حددت؛ لأن لولا التي معناها امتناع الشيء لوجود غيره هي مخصوصة بالأسماء، وقد تقع بعدها الأفعال على تقدير أنْ. اهـ. وهذا عجز البيت وصدره: لا درَّ درُّك إني قد رميتهمُ. وقوله: حُدِدت، أي: حرمت ومنعت، والمعنى؛ يقول: قد رميتُ واجتهدت في قتالهم، ولكني حرمت النصر عليهم، ولا يقبل عذر المحروم. خزانة الأدب.

وكذلك العِذْرة وهي مثلُ الرِّكْبة والجِلْسَة؛ قال النابغة:

هـا إنَّ تـا عِـذْرَةٌ إلَّا تَـكُـنْ نَـفَـعَـتْ فـإنّ صـاحِـبَـهـا قَـدْ تـاه فـي الْـبَـلَـدِ[1]

وتضمَّنت هذه الآيةُ خمسَ مسائل:

الأولى: قال القاضي أبو بكر بنُ العربيّ[2]: قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾: فيها دليلٌ على قَبول إقرار المرء على نفسه؛ لأنها شهادةٌ[3] منه عليها، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]. ولا خلافَ فيه؛ لأنه إخبارٌ على وجهٍ تنتفي التُّهمة عنه؛ لأن العاقل لا يكذِب على نفسه، وهي المسألة:

الثانية: وقد قال سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، ثم قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] وهو في الآثار كثير، قال النبيُّ ﷺ: «واغْدُ يا أُنَيس على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها»[4].

فأمَّا إقرارُ الغير على الغير بوارث أو دَين فقال مالك: الأمرُ المجتمعُ عليه عندنا في الرجل يَهْلِك وله بنون، فيقول أحدهم: إن أبي قد أقرَّ أنَّ فلانًا ابنه، أنَّ ذلك النسب لا يثبت بشهادة إنسان واحد، ولا يجوز إقرارُ الذي أقرَّ إلا على نفسه في

(١) الصحاح (عذر)، وأورده أيضاً ابن يعيش في شرح المفصل ٨/ ١١٣ ، والبغدادي في الخزانة ٥/ ٤٥٩ وفيهما: إن لم تكن، بدل: إلَّا تكن. وسلف قريباً بغير هذه الرواية.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٧٨ .

(٣) في (م): بشهادة.

(٤) أخرجه البخاري (٢٣١٤ - ٢٣١٥)، ومسلم (١٦٩٧ - ١٦٩٨) عن زيد بن خالد الجهني وأبي هريرة رضي الله عنهما، وسلف ٦/ ١٤٤ ، الكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٧٨ .

حصته من مال أبيه، يعطي الذي شَهِد له قَدْرَ[١] الذي يصيبه من المال الذي في يده. قال مالك: وتفسيرُ ذلك: أن يَهْلِك الرجل ويترك ابنين ويترك ستَّ مئةِ دينار، [فيأخذُ كلُّ واحد منهما ثلاثَ مئةِ دينار]، ثم يشهدُ أحدهما بأنَّ أباه الهالكَ أقرَّ أن فلانًا ابنُه، فيكونُ على الذي شَهِد للذي استُلْحِق[٢] مئةُ دينار، وذلك نصفُ ميراث المستلحَق لو لَحِقَ، وإن أقرَّ له الآخر أخذ المئة الأخرى، فاستكمل حقَّه وثَبَتَ نسبُه[٣].

وهو أيضًا بمنزلة المرأة تُقِرُّ بالدَّين على أبيها أو على زوجها، وينكر ذلك الورثة، فعليها أن تدفع إلى الذي أقرَّت له قَدْرَ الذي يُصيبها من ذلك الدَّين لو ثبت على الورثة كلِّهم، إن كانت امرأةً فورِثت الثُّمن؛ دفعت إلى الغريم ثُمُن دَينه، وإن كانت ابنةً ورثت[٤] النصف؛ دفعت إلى الغريم نصف دَينه، على حسابِ هذا يدفع إليه مَن أقرَّ له من النساء.

الثالثة: لا يصح الإقرار إلا مِن مكلَّف، لكن بشرط ألا يكون محجورًا عليه؛ لأن الحجر يُسْقِط قولَه إن كان لحقِّ نفسه، فإن كان لحقِّ غيره، كالمريض، كان منه ساقط ومنه جائز. وبيانُه في مسائل الفقه[٥].

وللعبد حالتان في الإقرار: إحداهما في ابتدائه، ولا خلاف فيه على الوجه المتقدِّم. والثانية في انتهائه، وذلك مثلُ إبهام الإقرار، وله صورٌ كثيرة، وأمهاتُها ستٌّ:

الصورة الأولى: أن يقول: له عندي شيء، قال الشافعي: لو فَسَّره بتمرة أو كِسْرة قُبِل منه. والذي تقتضيه أصولُنا أنه لا يُقبَل إلا فيما له قَدْر، فإذا فسَّره به قُبِل منه وحَلَف عليه.

---

(١) بعدها في (د) و(م): الدَّين.

(٢) في (م): استحقَّ.

(٣) الاستذكار ٢٢/١٩٦ وما بين حاصرتين وما سيأتي إلى آخر المسألة منه.

(٤) في (ظ): فورثت.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٧٨ - ١٨٨٠، وما سيأتي إلى آخر المسألة منه.

الصورة الثانية: أن يفسِّر هذا بخمر أو خنزير، أو ما لا يكون مالًا في الشريعة، لم يُقْبل باتفاق ولو ساعده عليه المُقَرُّ له.

الصورة الثالثة: أن يفسِّره بمختلَف فيه مثل جلد الميتة أو سِرْقين[١] أو كلب، فإن الحاكم يحكم عليه في ذلك بما يراه من ردٍّ وإمضاء، فإن ردَّه لم يَحكم عليه حاكم آخرُ غيره بشيء، لأن الحكم قد نفذ بإبطاله. وقال بعض أصحاب الشافعيّ: يلزم الخمر والخنزير، وهو قول باطل. وقال أبو حنيفة: إذا قال: له عليَّ شيءٌ، لم يُقبل تفسيره إلا بِمَكيل أو موزون، لأنه لا يَثْبُت في الذِّمة بنفسه إلا هما. وهذا ضعيف؛ فإنَّ غيرَهما يثبت في الذمة إذا وجب ذلك إجماعًا.

الصورة الرابعة: إذا قال: له عندي مالٌ، قُبِل تفسيره بما يكون مالًا[٢] في العادة، كالدِّرهم والدِّرهمين، ما لم يَجِئ من قرينة الحال ما يحكم عليه بأكثر منه.

الصورة الخامسة: أن يقول: له عندي مالٌ كثير أو عظيم، فقال الشافعيُّ: يُقبل في الحبَّة. وقال أبو حنيفة: لا يُقبَل إلا في نصاب الزكاة. وقال علماؤنا في ذلك أقوالاً مختلفة، منها نصابُ السَّرقة والزكاة والدِّية، وأقلُّه عندي نصابُ السَّرقة، لأنه لا يُبَان عُضوُ المسلم إلا في مال عظيم، وبه قال أكثر الحنفية. ومَن تعجب فليتعجَّب[٣] لقول اللَّيث بن سعد: إنه لا يُقبل في أقلَّ من اثنين وسبعين درهمًا. فقيل له: ومن أين تقول ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ[٤]﴾ [التوبة: ٢٥]، وغزواتُه وسراياه كانت اثنتين وسبعين. وهذا لا يصحّ؛ لأنه أخرج حُنَيناً منها، وكان حقُّه أن يقول: يُقبل في أَحَدٍ وسبعين، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾

(١) السِّرقين هو الزِّبل، معرب سَركين. القاموس (سرقن).

(٢) في النسخ: بما لا يكون مالاً. والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ١٨٧٩/٤، والكلام منه، وينظر البناية في شرح الهداية ٥٤١/٧ ، وعقد الجواهر الثمينة ٧٠١/٢ ، والمجموع ٥٤٦/١٨ ، والمغني ٣٠٥/٧ .

(٣) في النسخ عدا (ظ): ومن تعجب فيتعجب، والمثبت من (ظ).

(٤) بعدها في (د) و(م): ويوم حنين.

[النساء: ١١٤]، وقال: ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨].

الصورة السادسة: إذا قال: له عندي عشرةٌ، أو مئةٌ، أو ألف، فإنه يُفَسِّرها بما شاء ويُقْبل منه، فإن قال: ألفُ درهم، أو مئةٌ وعبد، أو مئةٌ وخمسون درهمًا، فإنه يُفسِّر المبهَم ويُقبل منه، وبه قال الشافعيّ. وقال أبو حنيفة: إنْ عَطَفَ على العدد المبهم مكيلاً أو موزوناً، كان تفسيرًا؛ كقوله: مئةٌ وخمسون درهمًا؛ لأن الدِّرهم تفسيرٌ للخمسين، والخمسينَ تفسيرٌ للمئة. وقال ابن خَيران الإصْطَخْري من أصحاب الشافعي[١]: الدرهم لا يكون تفسيرًا في المئة والخمسين إلا للخمسين خاصة ويُفسِّر هو المئة بما شاء.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ ومعناه: لو اعتذر بعد الإقرار لم يُقبل منه. وقد اختلف العلماء فيمن رجع بعد ما أقرَّ في الحدود التي هي خالصُ حقِّ الله، فقال أكثرهم منهم الشافعيُّ وأبو حنيفة: يُقبلُ رجوعه بعد الإقرار. وقال به مالك في أحد قوليه، وقال في القول الآخر: لا يقبل إلا أن يذكر لرجوعه وجهًا صحيحًا. والصحيحُ جوازُ الرجوع مطلقًا؛ لِمَا روى الأئمة منهم البخاريُّ ومسلمٌ أن النبيَّ ﷺ ردَّ المُقرَّ بالزنى مرارًا أربعاً كلَّ مرَّة يُعرِض عنه، ولَمَّا شهد على نفسه أربع مرات، دعاه النبيُّ ﷺ وقال: «أبكَ جنون؟». قال: لا. قال: «أُحْصِنْت؟». قال: نعم[٢].

وفي حديث البخاريِّ: «لعلَّكَ قَبَّلت، أو غمزت، أو نظرتَ»[٣].

وفي النَّسائيِّ وأبي داود[٤]: حتى قال له في الخامسة: «أنِكتَها؟»[٥]. قال: نعم. قال: «حتى غاب ذلك منك في ذلك منها؟». قال: نعم. قال: «كما يغيب المِرود في

---

(١) هو أبو علي الحسين بن صالح بن خَيْران، البغدادي الشافعي، شيخ الشافعية، توفي سنة عشرين وثلاث مئة. سير أعلام النبلاء ١٥/٥٨ .

(٢) صحيح البخاري (٦٨٢٠)، و(٦٨٢٥)، وصحيح مسلم (١٦٩١): (١٦) من حديث جابر وأبي هريرة رضي الله عنهما. وأخرجه عنهما أيضاً أحمد (٩٨٤٥) و(١٤٤٦٢).

(٣) صحيح البخاري (٦٨٢٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عند أحمد (٢٤٣٣).

(٤) النسائي في السنن الكبرى (٧١٢٦)، وسنن أبي داود واللفظ له (٤٤٢٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) في (م): أجامعتها، وفي سنن النسائي: أنكحتها.

المُكْحُلة والرِّشاء في البئر؟». قال: نعم. ثم قال: «هل تدري ما الزنى؟» قال: نعم، أتيت منها حرامًا مثلَ ما يأتي الرجل من أهله حلالًا. قال: «فما تريد مني بهذا القول؟[1]» قال: أريد أن تطهرني. قال: فأمر به فَرُجم.

قال الترمذيُّ وأبو داود: فلمَّا وجد مَسَّ الحجارة، فَرَّ يشتدُّ، فضربه رجل بلَحْي جَمَل، وضربه الناس حتى مات. فقال النبيُّ ﷺ: «هَلَّا تركتموه»[2].

وقال أبو داود والنَّسائيُّ: ليتثبَّت رسول الله ﷺ، فأمَّا لترك حَدٍّ فلا[3]. وهذا كلُّه طريقٌ للرجوع وتصريحٌ بقَبوله. وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «لعلك قَبَّلْتَ أو غمزتَ» إشارةٌ إلى قول مالك: إنه يُقبل رجوعه إذا ذكر وجهًا[4].

الخامسة: وهذا في الحرِّ المالكِ لأمر نفسه، فأمَّا العبدُ، فإنَّ إقراره لا يخلو من أحد قسمين: إمَّا أن يُقِرَّ على بدنه، أو على ما في يده وذمته؛ فإن أقرَّ على بدنه[5] فيما فيه عقوبةٌ من القتل فما دونه، نَفَذَ ذلك عليه. وقال محمد بن الحسن: لا يقبل ذلك منه؛ لأن بدنه مستغرَقٌ لحق السيد، وفي إقراره إتلاف حقوق السيد في بدنه، ودليلُنا قوله ﷺ: «مَن أصاب من هذه القاذورات شيئًا، فليستتر بستر الله، فإنَّ مَن يُبْدِ لنا صفحته، نُقِم عليه الحدّ»[6]. المعنى: أن محلَّ العقوبة أصلُ الخِلقة، وهي الدُّمْية[7] في الآدمية، ولا حقَّ للسيِّد فيها، وإنما حقُّه في الوصف والتَّبَع، وهي

---

(١) قوله: بهذا القول، ليست في (م)، وجاءت في (د) و(ظ): هذا القول.

(٢) أخرجه الترمذي واللفظ له (١٤٢٨) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أبو داود (٤٤١٩) من حديث نُعَيم بن هزَّال ﷺ. وقوله: فرَّ يشتد، أي: يسعى.

(٣) سنن أبي داود (٤٤٢٠)، والنسائي في الكبرى (٧١٦٩) واللفظ له من حديث جابر ﷺ.

(٤) المسألة بتمامها في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٨٠ - ١٨٨١ .

(٥) في (د) و(م): فإن أقر على ما في بدنه.

(٦) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٨٢٥ عن زيد بن أسلم مرسلاً. وأخرجه الحاكم ٤/ ٢٤٤ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٧) في (د): الزينة، وفي (ظ) و(م) و(ي): الذِّمة، والمثبت من (ز) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٨١ - ١٨٨٢ والمسألة بتمامها منه.

المالية الطارئةُ عليه، ألا ترى أنه لو أقرَّ بمال لم يُقبل، حتى قال أبو حنيفة: إنه لو قال: سرقت هذه السلعة إنه[1] تقطع يده ويأخذها المُقرُّ له. وقال علماؤنا: السِّلْعة للسيِّد ويُتبَع العبدُ بقيمتها إذا عَتَق؛ لأن مال العبد للسيِّد إجماعًا، فلا يُقبل قولُه فيه ولا إقرارهُ عليه، لا سيما وأبو حنيفةَ يقول: إنَّ العبد لا مِلك له. ولا يصحُّ أن يَمْلِك ولا يُمَلَّك، ونحن وإن قلنا: إنه يصحُّ تملُّكه، ولكن جميع ما في يده لسيده بإجماع على القولين. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ في الترمذي: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن يحرِّكُ به لسانه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قال: فكان يحرِّك به شفتيه. وحرَّك سفيان شفتيه. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح[2].

ولفظ مسلم عن ابن جُبير عن ابن عباس قال: كان النبيُّ ﷺ يعالج من التنزيل شدَّة، كان يحرِّك شفتيه، فقال لي ابن عباس: أنا أحرِّكهما كما كان رسول الله ﷺ يحرِّكهما، فقال سعيد: أنا أحركهما كما كان ابن عباس يحرِّكهما، فحرَّك شفتيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: جَمْعَهُ في صدرك ثم تقرؤه .﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ قال: فاستَمِع له وأنصت. ثم إنَّ علينا أن نقرأه، قال: فكان رسول الله ﷺ[3] إذا أتاه جبريلُ عليهما السلام استمع، وإذا انطلق

(١) بعدها في (د) و(م): لم. ينظر بدائع الصنائع ٩/ ٣٢٨ .

(٢) سنن الترمذي (٣٣٢٩) وسفيان هو ابن عيينة أحد رجال الإسناد، وأخرجه أيضاً أحمد (١٩١٠)، والبخاري (٤٩٢٧) مختصراً.

(٣) بعدها في (م): بعد ذلك.

جبريل عليه السلام قرأه النبيُّ ﷺ كما أقرأه. خرَّجه البخاريُّ أيضًا(١).

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]، وقد تقدَّم(٢).

وقال عامرٌ الشَّعْبي: إنما كان يعجل بذكره إذا نزل عليه من حُبِّه له، وحلاوته في لسانه، فنُهي عن ذلك حتى يجتمع؛ لأن بعضه مرتبط ببعض(٣).

وقيل: كان عليه الصلاة والسلام إذا نزل عليه الوحي، حرَّك لسانه مع الوحي مخافة أن ينساه، فنزلت: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]، ونزل: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، ونزل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾. قاله ابن عباس(٤).

«وقرآنه» أي: وقراءتَه عليك. والقراءةُ والقرآن في قول الفراء(٥) مصدران. وقال قتادة: «فَاتَّبِعْ قُرْآنه» أي: فاتبع شرائعه وأحكامه(٦).

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: تفسيرَ ما فيه من الحدود والحلال والحرام. قاله قتادة(٧). وقيل: ثم إنَّ علينا بيانَ ما فيه من الوعد والوعيد وتحقيقَهما. وقيل: أي: إن علينا أن نبيِّنه بلسانك(٨).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال ابن عباس: أي: إنَّ أبا جهل لا يؤمن بتفسير القرآن وبيانه(٩). وقيل: أي: «كَلَّا» لا يُصلُّون ولا يزكُّون، يريد كفَّارَ مكة.

---

(١) صحيح مسلم (٤٤٨): (١٤٨)، وصحيح البخاري (٥)، وهو عند أحمد أيضاً (٣١٩١).

(٢) ١٤/١٤٤ - ١٤٥ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٥٥ ، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٤٩٨ مختصراً.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٩٩ مختصراً.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٢١١ .

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٣٤ ، والطبري ٢٣/ ٥٠٣ بنحوه.

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٠٤ بنحوه.

(٨) أخرج هذا القول الطبري ٢٣/ ٥٠٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٩) نسب هذا القول الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٩٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٢٢ لعطاء.

﴿بَلْ تُحِبُّونَ﴾ أي: بل تحبُّون يا كفارَ أهل مكة ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ أي: الدارَ الدنيا والحياةَ فيها ﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي: تَدَعُون ﴿الْآخِرَةَ﴾ والعملَ لها. وفي بعض التفسير قال: الآخرة: الجنة.

وقرأ أهل المدينة والكوفيون: «بَلْ تُحِبُّونَ»، «وَتَذَرُونَ» بالتاء فيهما على الخطاب(١)، واختاره أبو عبيد، قال: ولولا الكراهةُ لِخِلاف هؤلاء القراء، لقرأتُها بالياء، لِذِكر الإنسان قبل ذلك. الباقون بالياء على الخبر، وهو اختيار أبي حاتم. فَمَن قرأ بالياء فردًّا على قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ﴾ وهو بمعنى الناس. ومَن قرأ بالتاء فعلى أنه واجههم بالتقريع؛ لأنَّ ذلك أبلغُ في المقصود؛ نظيره: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ الأوَّلُ من النَّضرة التي هي الحُسْن والنَّعمة، والثاني من النظر، أي: وجوهُ المؤمنين مشرقةٌ حسنة ناعمة، يقال: نَضَرهم اللهُ يَنضُرُهم نَضْرة ونَضَارة، وهو الإشراق والعيش والغنى، ومنه الحديث: «نَضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها»(٢).

«إِلَى رَبِّهَا»: إلى خالقها ومالكها «نَاظِرَةٌ»، أي: تنظر إلى ربها، على هذا جمهور العلماء. وفي الباب حديث صُهَيب خرَّجه مسلم(٣) وقد مضى في «يونس»(٤) عند قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [الآية: ٢٦]. وكان ابن عمر يقول: أكرمُ أهل

---

(١) السبعة ص ٦٦١، والتيسير ص ٢١٧.

(٢) سلف ١٢٨/٢.

(٣) برقم (١٨١) وهو قوله ﷺ: إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟... إلى أن قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل.

(٤) ٤٨٣/١٠.

الجنة على الله مَن ينظر إلى وجهه غُدْوة وعَشية، ثم تلا هذه الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[١]. وروى يزيدُ النَّحْوي عن عِكْرمة قال: تنظر إلى ربها نظرًا[٢]. وكان الحسن يقول: نَضَرت وجوههم ونظروا إلى ربِّهم[٣].

وقيل: إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب. ورُوي عن ابن عمر ومجاهد[٤]. وقال عكرمة: تنتظر أمر ربها. حكاه الماورديُّ عن ابن عمر وعِكرمة أيضًا[٥]. وليس معروفًا إلا عن مجاهد وحده. واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام:١٠٣]. وهذا القول ضعيف جدًّا، خارجٌ عن مقتضى ظاهر الآية والأخبار.

وفي الترمذيِّ[٦] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهلِ الجنة منزلة لَمَن ينظر إلى جِنانه وأزواجه وخَدمه وسُرره مسيرةَ ألفِ سنة، وأكرمُهم على الله مَن ينظر إلى وجهه غُدْوة وعَشيَّة». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: هذا حديث غريب. وقد رُويَ عن ابن عمر ولم يرفعه.

وفي صحيح مسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ قال: «جنتانِ من فضة، آنيتُهما وما فيهما، وجنتانِ من ذهب، آنيتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم جلَّ وعزَّ إلا رِداءُ الكِبْرياء على وجهه في جَنَّة عدن»[٧].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٥٣).

(٢) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية ص ٥٣، والطبري ٢٣/ ٥٠٧، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٨٠٣).

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٠٧ بنحوه.

(٤) أخرجه عن مجاهد الطبري ٢٣/ ٥٠٨.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٥٦ عن عكرمة فقط، وحكى عن ابن عمر ومجاهد: إلى ربها ناظرة: إلى ثواب ربها.

(٦) برقم (٣٣٣٠).

(٧) صحيح مسلم (١٨٠): (٢٩٦)، وهو عند أحمد (١٩٦٨٢)، والبخاري (٧٤٤٤)، وقوله: وما بين =

وروى جرير بن عبد الله قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ جلوسًا، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم عِيانًا كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُون في رؤيته؛ فإن استطعتم ألَّا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا». ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩] متَّفق عليه. وخرَّجه أيضًا أبو داود والترمذيُّ وقال: حديث حسن صحيح[١].

وخرَّج أبو داود عن أبي رَزِين العُقَيليِّ قال: قلت: يا رسول الله، أكلُّنا يرى ربه[٢] مُخْلِيًا به يوم القيامة؟ قال: «نعم يا أبا رَزِين» قال: وما آيةُ ذلك في خَلْقه؟ قال «يا أبا رَزِين، أليس كلُّكم يَرَى القمر[٣] ليلة البدر مُخْلِيًا به؟». قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم[٤]، إنما[٥] هو خلق من خلق الله، يعني القمر، فالله أجلُّ وأعظم[٦]».

وفي كتاب النَّسائيِّ[٧] عن صُهَيب قال: «فيكشِفُ الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحبَّ إليهم من النظر، ولا أقرَّ لأعينهم».

وفي التفسير لأبي إسحاق الثَّعلبيِّ عن أبي الزُّبير[٨] عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يتجلَّى ربُّنا عزَّ وجلَّ حتى ينظروا إلى وجهه، فيخرُّون له سُجَّدًا، فيقول: ارفعوا

= القوم وبين أن ينظروا... قال النووي في شرحه لصحيح مسلم ٣/١٦: قال العلماء: كان النبي ﷺ يخاطب العرب بما يفهمونه، ويقرب الكلام إلى أفهامهم، ويستعمل الاستعارة وغيرها من أنواع المجاز ليقرب متناولها، فعبر ﷺ عن زوال المانع ورفعه عن الأبصار بإزالة الرداء.

(١) صحيح البخاري (٥٥٤)، وصحيح مسلم (٦٣٣)، وسنن أبي داود (٤٧٢٩)، وسنن الترمذي (٢٥٥١)، وسلف ٤/ ١٨٠ .

(٢) بعدها في (م) وسنن أبي داود: قال ابن معاذ. قلنا: وهو عبيد الله بن معاذ أحد رجال الإسناد.

(٣) بعدها في (م) وسنن أبي داود: قال ابن معاذ.

(٤) بعدها في سنن أبي داود: قال ابن معاذ، قال.

(٥) في (م): فإنما.

(٦) سنن أبي داود (٤٧٣١)، وهو عند أحمد (١٦١٨٦)، وابن ماجه (١٨٠).

(٧) في السنن الكبرى (١١١٧٠)، وسلف ١٠/ ٤٨٣ .

(٨) في (م): عن الزبير.

رؤوسكم، فليس هذا بيوم عبادة»[١]. قال الثعلبيُّ: وقولُ مجاهد إنها بمعنى: تنتظر الثواب من ربِّها ولا يراه شيء من خَلقه، فتأويلٌ مدخول؛ لأن العرب إذا أرادت بالنظر الانتظار، قالوا: نَظرتُه، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ [الزخرف:٦٦]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣]، و﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس:٤٩]، وإذا أرادتْ به التفكُّر والتدبُّر قالوا: نظرتُ فيه. فأمَّا إذا كان النظر مقرونًا بذكر إلى، وذكرِ الوجه، فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعِيان.

وقال الأزهريُّ: إنَّ قول مجاهد: تنتظر ثواب رَبِّها، خطأٌ؛ لأنه لا يقال: نظر إلى كذا، بمعنى الانتظار، وإنَّ قول القائل: نظرت إلى فلان، ليس إلا رؤيةَ عين، كذلك تقوله العرب؛ لأنهم يقولون: نظرت إليه: إذا أرادوا نظر العين، فإذا أرادوا الانتظار، قالوا: نَظَرْتُه[٢]، قال:

فـإنَّـكُـمـا إنْ تَـنْـظُـرانـيَ سـاعـةً ... مِن الدَّهْرِ تَنْفَعْنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبِ[٣]

لمَّا أراد الانتظار قال: تنظراني، ولم يقل: تنظران إليَّ، وإذا أرادوا نظر العين قالوا: نظرت إليه، قال:

نـظـرتُ إلـيـهـا والـنُّـجُـومُ كـأنَّـهـا ... مَـصـابـيـحُ رُهْـبـانٍ تُـشَـبُّ لِـقُـفَّـالِ[٤]

وقال آخر:

نظرتُ إليـهـا بـالـمُـحـصَّـبِ مِنْ مِنًى ... ولـيْ نَـظَـرٌ[٥] لـولا الـتَّـحَـرُّجُ عـارِمُ

(١) أخرجه الدارقطني في كتاب الرؤية (٥٢) وفيه أحمد بن محمد بن عمر بن يونس اليمامي، كذبه أبو حاتم وابن صاعد. وقال الدارقطني: ضعيف، وقال مرة: متروك. وقال ابن عدي: حدث عن الثقات بمناكير وكان ينسخ عجائب. ميزان الاعتدال ١/ ١٤٣ .

(٢) ينظر تهذيب اللغة ١٤/ ٣٧١ .

(٣) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٤١ ، وسلف ٢/ ٢٩٨ .

(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٣١ ، وقوله: تُشَبُّ، أي: توقد. والقُفَّال جمع قافل، وهو الراجع من السفر. ينظر اللسان (شبب) و(قفل).

(٥) في النسخ عدا (ظ): نظرة، وسقط هذا الموضع من (ظ)، والمثبت من ديوان عمر بن أبي ربيعة ص١٨٢ .

وقال آخر:

إنِّي إليكَ لِمَا وَعَدتِ لناظِرٌ نَظَرَ الفقيرِ إلى الغنيِّ المُوسِرِ[(١)]

أي: إني أنظر إليك بِذُلٍّ، لأنَّ نظر الذُّلِّ والخضوع أرقُّ لقلب المسؤول.

فأمَّا ما استدلوا به من قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فإنما ذلك في الدنيا. وقد مضى القول فيه في موضعه مستوفًى[(٢)].

وقال عطية العَوْفي: ينظرون إلى الله، لا تحيط أبصارهم به من عظمته، ونظرُه يحيط بهم[(٣)]، يدل عليه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[(٤)] [الأنعام: ١٠٣].

قال القشيريُّ أبو نصر: وقيل: «إلى» واحد الآلاء، أي: نِعَمهُ منتظرة، وهذا أيضاً باطل؛ لأن واحد الآلاء يكتب بالألف لا بالياء، ثم الآلاء: نِعَمُه الدُّفَّع، وهم في الجنة لا ينتظرون دفعَ نِعمة[(٥)] عنهم، والمنتظرُ للشيء مُتنغِّصُ العيش، فلا يوصف أهل الجنة بذلك.

وقيل: أضاف النظر إلى الوجه، لأن العين في الوجه[(٦)]، وهو كقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥] والماءُ يجري في النهر لا النهر. ثم قد يُذكر الوجه بمعنى العين، قال الله تعالى[(٧)]: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣]، أي: على عينيه. ثم لا يبعد قلب العادة غدًا، حتى يخلق الرؤية والنظر في الوجه، وهو كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ [الملك: ٢٢]، فقيل: يا رسول الله!

(١) البيت لجميل، وهو في ديوانه ص ١٠٩، وفيه: بما، بدل: لما. والمكثر، بدل: الموسر.

(٢) ٨/ ٤٨٢ وما بعدها.

(٣) في (م): بها.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٠٧.

(٥) في (د) و(ز) و(م): نقمه، والمثبت من (ظ) و(ي).

(٦) قوله: لأن العين في الوجه، ليس في (د) و(م).

(٧) بعدها في (ظ): حكاية عن يوسف.

كيف يمشون في النار على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على[١] أن يُمشيَهم على وجوههم»[٢].

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي: وجوه الكفار يوم القيامة كالحةٌ كاسفةٌ عابسة. وفي الصحاح: وبَسَر الفحلُ الناقةَ وابتسرها: إذا ضربها من غير ضَبَعَة[٣]. وبَسَر الرجلُ وجهَه بُسورًا، أي: كَلَح، يقال: عَبَسَ وبَسَر[٤]. وقال السُّديّ: «بَاسِرَةٌ» أي: متغيرة[٥]، والمعنى واحد.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي: تُوقن وتعلم، والفاقرة: الداهية والأمر العظيم؛ يقال: فَقَرَتْه الفاقرة، أي: كسرت فَقَار ظهره[٦]. قال معناه مجاهد وغيره. وقال قتادة: الفاقرة: الشَّرّ[٧]. السُّدِّيّ: الهلاك[٨]. ابن عباس وابن زيد: دخول النار[٩]. والمعنى متقارب. وأصلُها الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يَخْلص إلى العظم. قاله الأصمعي[١٠]. يقال: فَقَرتُ أنفَ البعير: إذا حززتَه بحديدة ثم جعلتَ على موضع الحزِّ الجَرِير[١١]. وعليه وَتَرٌ مَلْويٌّ؛ لِتُذلِّلَه بذلك وتَرُوضَه، ومنه قولهم: قد عَمِل به الفاقرة[١٢]. وقال النابغة:

---

(١) لفظة: على، من (د) و(ظ).

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٥٥)، والترمذي واللفظ له (٣١٤٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أيضاً أحمد (١٢٧٠٨)، والبخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦) من حديث أنس ﷺ.

(٣) الضَبَعَة: هو شدة شهوة الناقة للفحل. الصحاح (ضبع).

(٤) الصحاح (بسر).

(٥) النكت والعيون ٦/١٥٧ .

(٦) الصحاح (فقر).

(٧) أخرج قوله وقول مجاهد الطبري ٢٣/ ٥١١ - ٥١٢ .

(٨) النكت والعيون ٦/ ١٥٧ .

(٩) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥١٢ عن ابن زيد .

(١٠) تهذيب اللغة ٩/ ١١٦ .

(١١) هو حبل من أَدَم يخطم به البعير. اللسان (جرر).

(١٢) الصحاح (فقر).

أَبَى لِيَ قَبْرٌ لا يَزالُ مُقَابِلِي وضَرْبَةُ فَأْسٍ فوقَ رأسِيَ فَاقِرَهْ[١]

أي: كاسرة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ «كَلَّا» رَدْعٌ وزَجْر، أي: بعيدٌ أن يؤمن الكافر بيوم القيامة؛ ثم استأنف فقال: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ أي: بلغت النفس أو الروح التراقي، فأخبر عمَّا لم يجر له ذكر؛ لعلم المخاطب به[٢]، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]، وقد تقدَّم[٣].

وقيل: «كَلَّا» معناه حقًّا[٤]، أي: حقًّا أنَّ المَساق إلى الله إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ، أي: إذا ارتقت النفس إلى التراقي. وكان ابن عباس يقول: إذا بلغت نفس الكافر التراقي. والتراقي جمعُ تَرْقُوة: وهي العظامُ المكتنفة لنُقْرة النَّحر، وهو مقدَّم الحَلْق من أعلى الصدر، موضعِ الحَشْرجة، قال دُرَيد بن الصِّمَّة:

ورُبَّ عَظِيمةٍ دافَعْتَ عَنْهُم وقَدْ بَلَغَتْ نُفُوسُهُم التَّرَاقِي[٥]

وقد يُكْنى عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقي[٦]، والمقصودُ تذكيرُهم

(١) ديوان النابغة الذبياني ص ٧٠.

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٢٣٠.

(٣) ١٨/ ١٩٣، ٢٠/ ٢٢٩.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٩٢، وتفسير أبي الليث ٣/ ٤٢٧.

(٥) كذا نسبه المصنف لدريد بن الصمَّة، ونسبه إليه أيضاً الرازي في تفسيره ٣٠/ ٢٣٠، ونسبه ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٤٥٤، وياقوت الحموي في معجم البلدان ٣/ ٢٥٨، والصفدي في الوافي بالوفيات ١٤/ ١٢ لعمرة بنت دريد بن الصمة؛ قالته في قصيدة لها ترثي بها أباها.

(٦) زاد المسير ٨/ ٤٢٤.

شدَّةَ الحال عند نزول الموت.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ اختُلف فيه، فقيل: هو من الرُّقية؛ عن ابن عباس وعكرمةَ وغيرهما[1]. روى سِمَاك عن عكرمة قال: مَن راقٍ يَرْقي؟ أي: يَشْفي[2]. وروى ميمون بن مِهران عن ابن عباس: أي: هل من طبيب يَشْفِيه. وقاله أبو قِلابة وقتادة[3]. وقال الشاعر:

هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقِ ... أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ المَوْتِ مِنْ رَاق[4]

وكان هذا على وجه الاستبعاد واليأس، أي: مَن يَقدِر أن يَرْقي من الموت.

وعن ابن عباس أيضًا وأبي الجوزاء أنه من رَقِيَ يَرْقَى: إذا صَعِد، والمعنى: مَن يَرقَى بروحه إلى السماء؟ أملائكةُ الرَّحمة أم ملائكةُ العذاب[5]؟

وقيل: إن مَلَك الموت يقول: مَن راقٍ؟ أي: مَن يَرْقَى بهذه النفس، وذلك أنَّ نفس الكافر تكره الملائكةُ قربها، فيقول مَلَك الموت: يا فلان اصعد بها[6].

وأظهر عاصم وقومٌ النون في قوله تعالى: «مَنْ رَاقٍ»، واللَّامَ في قوله: «بَلْ رَانَ»[7] لئلا يُشبِه مَرَّاق وهو بائع المَرَقة، وبَرَّان في تثنية البَرّ. والصحيحُ ترك الإظهار، وكسرةُ القاف في: «مَنْ رَاق»، وفتحةُ النون في: «بَلْ رَانَ» تكفي في زوال اللَّبس. وأمثل ممَّا ذُكِر: قصدَ الوقف على «مَنْ» و«بَلْ»، فأظْهَرَهما. قاله القشيريّ[8].

---

(١) أورده بنحوه عن ابن عباس الماورديُّ في النكت والعيون ٦/ ١٥٧، وعن عكرمة ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٢٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥١٣.

(٣) أخرج قول أبي قلابة الطبري ٢٣/ ٥١٣، وأخرج قول قتادة عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٣٥.

(٤) أورده ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ٣٠٨، وابن عبد ربه في العقد الفريد ٣/ ٢٤٤، وأبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال ٢/ ٣٥٩ ونسبوه ليزيد بن خَذَّاق.

(٥) أخرجه عنهما الطبري ٢٣/ ٥١٤ بنحوه.

(٦) ينظر تفسير الرازي: ٣٠/ ٢٣١.

(٧) السبعة ص٦٦١، ٦٧٥، والتيسير ص١٤٢.

(٨) أورد الرازي في تفسيره ٣٠/ ٢٣١ نحو هذا القول عن الواحدي، قال: والوجه أن يقال: قَصدَ ـ يعني عاصماً ـ الوقف على (مَن) و(بل)، فأظهرهما ثم ابتدأ بما بعدهما.

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ﴾ أي: أيقن الإنسان ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ أي: فراقُ الدنيا والأهل والمال والولد، وذلك حين عاين الملائكة. وقال الشاعر:

فـراقٌ لـيـس يُـشـبـهُـهُ فِـراقُ قـد انـقـطـع الـرجـاءُ عـن الـتَّـلَاقِ

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ أي: فاتصلت الشدَّة بالشدَّة؛ شدَّةُ آخر الدنيا بشدة أوَّل الآخرة. قاله ابن عباس والحسن وغيرهما[1]. وقال الشعبي وغيره: المعنى: التفَّت ساقا الإنسان عند الموت من شدَّة الكرب[2]. وقال قتادة: أمَا رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى[3]. وقال سعيد بن المسيِّب والحسن أيضاً: هما ساقا الإنسان إذا التفَّتا في الكفن[4]. وقال زيد بن أسلم: التفَّتْ ساق الكفن بساق الميت. وقال الحسن أيضاً: ماتت رجلاه ويبست ساقاه فلم تحملاه، ولقد كان عليهما جوَّالاً[5].

قال النحاس: القولُ الأوّل أحسنُها. وروى عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس: «وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ» قال: آخر يوم من الدنيا وأوّل يوم من الآخرة، فتلتقي الشدَّة بالشدَّة إلَّا من رحمه الله[6]، أي: شدَّةُ كرب الموت بشدَّة هول المَطْلع، والدليل على هذا قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾. وقال مجاهد: بلاء ببلاء[7]. يقول: تتابعت عليه الشدائد[8]. وقال الضحاك وابن زيد: اجتمع عليه أمران شديدان: الناسُ يُجهِّزون جسده، والملائكة يُجهِّزون رُوحه[9]، والعرب لا تذكر الساق إلا في المِحن

(١) أخرجه عنهما الطبري ٢٣/ ٥١٦ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥١٩ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠/ ٢٣٢ .

(٤) المصدر السابق، وأخرج قول الحسن الطبري ٢٣/ ٥١٩ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٥٨ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥١٦ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٢١ .

(٨) نسب هذا القول البغوي في تفسيره ٤/ ٤٢٤ لسعيد بن جبير.

(٩) أورده عن الضحاك البغوي في تفسيره ٤/ ٤٢٥ ، وعن ابن زيد الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٥٨ .

والشدائد العظام، ومنه قولهم: قامت الدنيا على ساق، وقامت الحرب على ساق. قال الشاعر:

وقامتِ الحربُ بنا على ساق[١]

وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة «ن وَالْقَلَم»[٢].

وقال قوم: الكافر تُعَذَّب روحه عند خروج نفسه، فهذه الساق الأولى، ثم يكون بعدها[٣] ساقُ البعث وشدائده. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى خالقك ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ أي: المرجع. وفي بعض التفاسير قال: يسوقه مَلَكه الذي كان يحفظ عليه السيئات. والمَسَاق: المصدر مِن ساق يسوق، كالمَقالِ مِن قال يقول[٤].

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي: لم يصدِّق أبو جهل ولم يصلِّ[٥]. وقيل: يرجع هذا إلى الإنسان في أوَّل السورة، وهو اسم جنس[٦]. والأوَّل قولُ ابن عباس. أي: لم يصدِّق بالرسالة، «وَلَا صلَّى»: دعا لربِّه[٧]، وصلَّى على رسوله. وقال قتادة: فلا صدَّق بكتاب الله، ولا صلَّى لله[٨]. وقيل: ولا صدَّق بمال له ذُخرًا له عند

---

(١) سلف ١/ ٢٥٣.

(٢) ص١٧٥ وما بعدها من هذا الجزء.

(٣) في النسخ: بعدهما.

(٤) تفسير الرازي ٣٠/ ٢٣٢.

(٥) بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٦.

(٦) ينظر الكشاف ٤/ ١٩٣.

(٧) في (م): ودعا لربه.

(٨) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٢٣.

الله[١]، ولا صلَّى الصلواتِ التي أمره الله بها. وقيل: فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه[٢].

قال الكسائي: «لَا» بمعنى لم، ولكنه يُقرن بغيره، تقول العرب: لا عبدُ الله خارج ولا فلان، ولا تقول: مررت برجل لا مُحْسِن، حتى يقال: ولا مُجْمِل، وقولُه تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١]، ليس من هذا القبيل؛ لأن معناه: أفلا اقتحم، أي: فهلَّا اقتحم، فحذف ألف الاستفهام[٣].

وقال الأخفش: «فَلَا صَدَّق» أي: لم يصدِّق[٤]، كقوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾ [البلد: ١١] أي: لم يقتحم، ولم يشترط أن يُعْقِبه بشيء آخر، والعرب تقول: لا ذَهَبَ، أي: لم يذهب، فحرفُ النفي ينفي الماضي كما ينفي المستقبل، ومنه قول زهير:

فَـلَا هُـوَ أَبْـدَاهَـا وَلَـمْ يَـتَـقَـدَّمِ[٥]

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذَّب بالقرآن وتولَّى عن الإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي: يتبختر افتخارًا بذلك. قاله مجاهد وغيره. مجاهد: المراد به أبو جهل[٦]. وقيل: «يَتَمَطَّى» مِن المَطَا وهو الظَّهْر، والمعنى: يَلْوي مَطَاه. وقيل: أصلُه يتمطَّط، وهو التمدُّد من التكسُّل والتثاقل[٧]، فهو يتثاقل عن الداعي إلى الحقّ، فأُبدل من الطاء ياءً كراهة التضعيف[٨]، والتمطي يدلُّ على قلَّة الاكتراث، وهو التمدُّد، كأنه يمدُّ ظهره ويلويه من التبختر.

---

(١) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٧ أن القول الذي قبله أصوب.

(٢) أورد هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٥٨.

(٣) ينظر قول الكسائي في تفسير الرازي ٣٠/ ٢٣٣.

(٤) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٢١.

(٥) ديوان زهير ص٢٢، وهذا عجز البيت، وصدره: وكان طوى كَشْحًا على مُسْتَكِنَّة.

(٦) أخرج قولي مجاهد الطبري ٢٣/ ٥٢٤.

(٧) الكشاف ٤/ ١٩٣.

(٨) ينظر تفسير غريب القرآن ص٥٠١، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٧٩.

والمَطِيطة: الماء الخاثر في أسفل الحوض[١]؛ لأنه يتمطى، أي: يتمدَّد، وفي الخبر: «إذا مشت أمَّتي المُطَيْطاءَ، وخَدَمَتْهُم فارس والروم، كان بأسُهم بينهم»[٢]. والمُطَيْطاء: التبختُر ومدُّ اليدين في المشي.

قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾: تهديدٌ بعد تهديد، ووعيد بعد وعيد، أي: فهو وعيد أربعة لأربعة، كما رُويَ أنها نزلت في أبي جهلٍ الجاهلِ بربِّه فقال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ . وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: لا صدَّق رسولَ الله، ولا وقف بين يديَّ فصلَّى، ولكنْ كذَّب رسولي، وتولَّى عن التصلية[٣] بين يديّ. فتَرْكُ التصديق خَصْلةٌ، والتكذيبُ خَصْلة، وتركُ الصلاة خَصْلة، والتولي عن الله تعالى خَصْلة، فجاء الوعيد أربعةً مقابِلةً لترك الخصال الأربعة. والله أعلم. لا يقال: فإن قوله: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ خَصْلةٌ خامسة، فإنَّا نقول: تلك كانت عادته قبل التكذيب والتولِّي، فأخبر عنها. وذلك بَيِّنٌ في قول قتادة على ما نذكره.

وقيل: إنَّ رسول الله ﷺ خرج من المسجد ذات يوم[٤]، فاستقبله أبو جهل على باب المسجد، ممَّا يلي باب بني مخزوم، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، فهزَّه مرَّةً أو مرتين، ثم قال: «أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى» فقال له أبو جهل: أتهدِّدُني؟ فوالله إني لَأَعَزُّ أهل الوادي وأَكْرَمُه. ونزل على رسول الله ﷺ كما قال لأبي جهل[٥]. وهي كلمة وعيد. قال الشاعر:

---

(١) الصحاح (مطط).

(٢) صححه ابن حبان (٦٧١٦) من حديث خولة بنت قيس، وأخرجه الترمذي (٢٢٦١)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٣٥ ، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ١٦٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. قال الترمذي: حديث غريب. وينظر ميزان الاعتدال ٣/ ٥٣٨، وفيض القدير ١/ ٤٤٥.

(٣) كذا. وفي القاموس: صلى صلاةً، لا تصلية.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ي): ذات ليلة.

(٥) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٩٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢٥، والنكت والعيون للماوردي ٦/ ١٥٩، وسلف نحوه ١٩/ ١٣٥ - ١٣٦ .

فَـأَوْلَـى ثـم أَوْلَـى ثـم أَوْلَـى وهَـلْ لِـلـدَّرِّ يُـحْـلَـبُ مـن مَـرَدِّ[١]

قال قتادة: أقبل أبو جهل بنُ هشام يتبختر، فأخذ النبيُّ ﷺ بيده فقال: «أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى». فقال: ما تستطيع أنت ولا ربك لي شيئًا، إني لأعزُّ مَنْ بينَ جبليها. فلمَّا كان يوم بَدْر أشرف على المسلمين فقال: لا يُعْبَد الله بعد هذا اليوم أبدًا، فضرب الله عنقه، وقتله شرَّ قِتْلة[٢].

وقيل: معناه: الويل لك، ومنه قول الخنساء:

هَـمَـمْـتُ بـنـفـسـيَ كُـلَّ الـهُـمُـوم فَـأَوْلَـى لِـنَـفْـسـيَ أَوْلَـى لَـهَـا
سَـأَحْـمِـلُ نـفـسـي عـلـى آلـةٍ فـإمَّـا عـلـيـهـا وإمَّـا لَـهَـا[٣]

الآلة: الحالة، والآلة: السرير أيضًا الذي يُحمل عليه الميت[٤]، وعلى هذا التأويل قيل: هو من المقلوب، كأنه قيل: أَوْيَل، ثم أُخِّر الحرف المعتل، والمعنى: الويل لك حيًّا، والويل لك ميتًا، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تدخل النار، وهذا التكرير كما قال:

لَـكَ الْـوَيْـلَاتُ إِنَّـكَ مُـرْجِـلِـي[٥]

أي: لك الويلُ، ثم الويلُ، ثم الويلُ، وضُعِّف هذا القول.

وقيل: معناه الذمُّ لك أَوْلى من تركه، إلا أنه كثير في الكلام فحذِف. وقيل: المعنى أنت أولى وأجدرُ بهذا العذاب[٦].

(١) البيت لعبد الله بن الزبير، وهو في الأغاني ١٤/ ٢٣٧، وسلف ١٩/ ٢٧٠.
(٢) أخرجه عن الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٣٤-٣٣٥، الطبري ٢٣/ ٥٢٥.
(٣) ديوان الخنساء ص١٢١.
(٤) النكت والعيون ٦/ ١٥٩.
(٥) قطعة من بيت لامرئ القيس، وتمامه:

ويـومَ دخـلـتُ الـخِـدْرَ خِـدْرَ عُـنـيـزةٍ فـقـالـت لـك الـويـلاتُ إنـك مُـرْجِـلـي

وهو في ديوانه ص١١، وسلف ٢/ ٢٢١.
(٦) ذكر هذا القول البغوي في تفسيره ٤/ ٤٢٥.

وقال أبو العباس أحمد بن يحيى: قال الأصمعي: «أَوْلَى» في كلام العرب معناه: مُقَارِبة الهلاك(١)، كأنه يقول: قد وَلِيتَ الهلاك، قد دَانَيْتَ الهلاكَ، وأصلُه من الوَلْي، وهو القُرْب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾(٢) [التوبة: ١٢٣]، أي: يَقرُبُون منكم، وأنشد الأصمعي:

وَأَوْلَــى أن يــكــون لــه الــوَلاءُ(٣)

أي: قارب أن يكون له، وأنشد أيضًا:

أَوْلَى لِمَنْ هاجَتْ لَهُ أَنْ يَكْمَدَا(٤)

أي: قد دنا صاحبها [من](٥) الكمد. وكان أبو العباس ثعلبٌ يستحسن قول الأصمعيِّ ويقول: ليس أحد يفسِّر كتفسير الأصمعي.

النحاس: العرب تقول: أَوْلى لكَ: كِدتَ تَهلِك ثم أَفْلَتَّ، وكأنَّ تقديره: أولى لك وأولى بك الهلكة(٦).

المهدويُّ: قال: ولا تكون أَوْلى: أَفْعَل منك، وتكون خبر مبتدأ محذوف، كأنه قال: الوعيد أولى له من غيره؛ لأن أبا زيد قد حكى(٧): أَوْلَاةُ الآن: إذا أَوْعَدوا. فدخولُ علامة التأنيث دليلٌ على أنه ليس كذلك. و«لَكَ» خبرٌ عن «أَوْلَى». ولم ينصرف «أَوْلَى»؛ لأنه صار علمًا للوعيد، فصار كرجل اسمه أحمد(٨).

---

(١) أورد قول الأصمعي الجوهري في الصحاح (ولي).

(٢) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٤٢٥ .

(٣) لم نقف عليه، وأورده الألوسي في روح المعاني ٢٩/ ١٤٩ .

(٤) قائله ذو الرُّمة، وهو في ديوانه ١/ ٢٩١ ، وهو صدر بيت، وعجزه: أَوْلى وإن كانت خلاءً بُيَّدا.

(٥) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٦) بنحوه في معاني القرآن له ٦/ ٤٨٠ .

(٧) في النوادر في اللغة ص٢٦٠ .

(٨) ينظر الإملاء للعكبري بهامش الفتوحات الإلهية ٤/ ٤٣٥ .

وقيل: التكرير فيه على معنى: الذَّمُّ[١] لك على عملك السَّيِّئ الأوّل، ثم على الثاني، والثالث، والرابع، كما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ أي: يظنُّ ابن آدم ﴿أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي: أن يُخلَّى مُهمَلًا، فلا يُؤمَرُ ولا يُنهَى. قاله ابن زيد ومجاهد[٢]، ومنه: إبلٌ سُدًى: ترعى بلا راعٍ. وقيل: أيحسب أن يُترك في قبره كذلك أبدًا لا يُبعَث. وقال الشاعر:

فأُقْسِمُ باللَّهِ جهدَ اليَمِيـ ... ـنِ ما تَرَكَ اللهُ شيئًا سُدَى[٣]

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي: من قطرةِ ماء تُمنَى في الرَّحِم، أي: تُراق فيه؛ ولذلك سُمِّيت «مِنًى» لإراقة الدماء. وقد تقدَّم[٤]. والنطفة: الماء القليل، يقال: نَطَف الماء: إذا قطر. أي: ألم يكُ ماءً قليلًا في صُلْب الرجل وترائب المرأة.

وقرأ حفص: «مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى» بالياء، وهي قراءة ابن محيصن ومجاهدٍ ويعقوبَ[٥] وعبَّاس عن أبي عمرو[٦]، واختاره أبو عبيد لأجل المنيّ. الباقون بالتاء لأجل النطفة، واختاره أبو حاتم.

---

(١) في (د) و(م): الزم.

(٢) أخرج قولهما الطبري ٢٣/ ٥٢٦ .

(٣) أورده الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٦٠ ولم ينسبه.

(٤) ٢٠/ ٦٠ ، و٢٠٧ .

(٥) السبعة ص٦٦٢ ، والتيسير ص٢١٧ ، والنشر ٢/ ٣٩٤ . وقراءة ابن محيصن في المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٧.

(٦) كذا ذكر المصنف، وفي السبعة لابن مجاهد ص٦٦٢ عن عباس ـ وهو ابن الفضل الواقفي ـ عن أبي عمرو أنه قرأ بالتاء، وذكر عن أبي زيد عنه أنه قرأ بالتاء والياء، وذكر أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٤٦٥ القراءة بالياء لأبي عمرو من رواية عبد الوارث وشجاع عنه، والقراءة المشهورة عن أبي عمرو بالتاء، ووقع في (د) و(م): عياش، بدل: عباس، وهو خطأ.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي: دماً بعد النطفة، أي: قد نبَّه[١] تعالى بهذا كلِّه على خِسَّة قدره. ثم قال: ﴿فَخَلَقَ﴾ أي: فقدَّر ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي: فسوَّاه تسويةً، وعدَّله تعديلًا، بجعل الروح فيه ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ أي: من الإنسان. وقيل: من المنيّ. ﴿الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ أي: الرجل والمرأة. وقد احتجَّ بهذا مَن رأى إسقاط الخُنثى. وقد مضى في سورة الشورى[٢] أنَّ هذه الآية وقرينتَها إنما خرجتا مخرج الغالب[٣]. وقد مضى في أول سورة النساء أيضًا القولُ فيه، وذكرنا في آية المواريث حكْمَه[٤]، فلا معنى لإعادته.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ﴾ أي: أليس الذي قَدَرَ على خلق هذه النَّسَمة من قطرة من ماء ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: على أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها للبعث بعد البِلَى. ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قرأها قال: «سبحانك اللَّهم، بَلَى»[٥].

وقال ابن عباس: مَن قرأ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] إمامًا كان أو غيرَه، فليقل: سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى. ومَن قرأ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ١] إلى آخرها، إمامًا كان أو غيرَه، فليقل: سبحانك اللَّهُمَّ، بَلَى. ذكره الثعلبيُّ من حديث أبي إسحاق السَّبِيعيِّ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس[٦].

ختمت السورة والحمدُ لله.

---

(١) في (ز): قدر، وفي (د) و(م) و(ي): رتبه. والمثبت من (ظ).

(٢) ١٨/٥٠٥ وما بعدها.

(٣) ٦/٧ ، ١٠٩ وما بعدها.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٨٤ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/٥٢٨ عن قتادة مرسلاً.

(٦) أخرجه عبد الرزاق (٤٠٥١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢١٠٠). وأخرج الشطر الأول منه أبو داود (٨٨٣) من طريق وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعاً. قال أبو داود: خولف وكيع في هذا الحديث، رواه أبو وكيع وشعبة، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوفاً.

سُورَةُ القِيَامَةِ

مَكِّيَّةٌ، وآيُها تِسعٌ وثلاثونَ[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) - ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إدخالُ ﴿لَآ﴾ النَّافيةِ على فعلِ القَسَمِ للتَّأكيدِ شائعٌ في كَلامِهِم، قال امرؤُ القَيسِ:

لَا وَأَبِيكِ ابْنَةَ العَامِرِيْـ ... ـيِ لَا يَدَّعِي القَوْمُ أَنِّي أَفِرْ[2]

وقد مرَّ الكَلامُ فيهِ في قولِه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥].

وقرَأ قُنْبُلٌ: ﴿لَأُقۡسِمُ﴾ بغيرِ ألفٍ بعدَ اللامِ، وكذا رُوِيَ عَن البَزِّيِّ[3].

(٢) - ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾: بالنَّفسِ المُتَّقِيَةِ التي تلومُ النُّفوسَ المُقصِّرَةَ في التَّقوَى يومَ القيامةِ على تَقصيرِها، أو التي تَلُومُ نَفْسَها أبدًا وإن اجتَهَدَتْ في الطَّاعةِ.
أو النَّفسِ المُطمَئِنَّةِ اللائِمَةِ للنَّفسِ الأمَّارَةِ.

أو بالجنسِ[4]؛ لِمَا رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ قال: «ليسَ مِن نفسٍ بَرَّةٍ وَلَا فَاجِرَةٍ

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٥٩)، وفيه: أربعون آية في الكوفي وتسع وثلاثون في عدد الباقين.

(٢) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص: ١٠٥).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦١)، و«التيسير» (ص: ٢١٦).

(٤) قولُه: «أو بالجنسِ»؛ أي: القسَمُ بجنسِ النَّفسِ الشَّاملِ للتَّقيَّةِ والفاجرةِ، والقسَمُ بها حينَئذٍ بقطعِ =

إلَّا وتلومُ نَفْسَها يومَ القيامَةِ، إن عَمِلَت خيرًا قالت: كيفَ لم أَزدَدْ؟ وإن عَمِلَتْ شَرًّا قالت: ليتَنِي كنتُ قصَّرتُ»[1].

أو نفسِ آدمَ فإنَّها لم تَزَلْ تَتلوَّمُ على ما خرجَتْ بهِ مِن الجنَّةِ، وضمُّها إلى القيامةِ لأنَّ المقصودَ مِن إقامَتِها مُجازاتُها.

(٣) ـ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني: الجنسَ، وإسنادُ الفعلِ إليه[2] لأنَّ فيهِمْ مَن يَحسَبُ.

أو: الذي نزلَ فيه، وهو عَدِيُّ بنُ ربيعةَ سألَ رسولَ اللهِ ﷺ عن أمرِ القيامَةِ فأخبرَهُ بهِ، فقال: لو عايَنْتُ ذلك اليومَ لَمْ أُصَدِّقْكَ، أَوَيجمعُ اللهُ هذهِ العِظَامَ[3].

﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ بعدَ تَفرُّقِها، وقُرِئَ: (أَنْ لَنْ تُجْمَعَ) على البناءِ للمَفعولِ[4].

= النَّظرِ عن صفاتِها؛ بل من حيثُ هي شريفةٌ؛ لأنَّها بمعنَى الرُّوحِ، وهي من عظيمِ أمرِ الله، فلا يرِدُ عليه ما قيلَ من أنَّ الإقسام يقتَضي الإعظامَ، وهو لا يُناسبُ إدخالَ النَّفسِ الفاجرةِ في المُقسَمِ به. عن الشهاب.

(١) ذكره بهذا اللفظ الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٢٠٨) من كلامه هو، وقد نسبه إليه كثير من المفسرين، منهم الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ١١٤)، والواحدي في «البسيط» (٢٢/ ٤٧٦)، والبغوي في «تفسيره» (٨/ ٢٨٠)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٣٦٩). وأورده السمرقندي في «تفسيره» من قول عمر رضي الله عنه، وذكر نحوه الواحدي في «البسيط» (٢٢/ ٤٧٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية عطاء، والنسفي «التيسير في التفسير» عند هذه الآية عن الكلبي.

(٢) في نسخة الخيالي: «إليهم».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٠٩)، و«تفسير الثعلبي» (٢٨/ ١١٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٢٨٠)، ولم يذكروا له سنداً ولا راوياً.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٥)، و«الكشاف» (٩/ ٣٨٨)، و«البحر» (٢١/ ١٠٧)، عن قتادة.

(٤) ـ ﴿بَلَىٰ﴾ نجمَعُها ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ بجمعِ سُلَامَيَاتِه وضمِّ بعضِها إلى بَعضٍ كما كانَتْ مع صغرِهَا ولطافَتِها، فكيفَ بكبارِ العظامِ؟

أو: على أَنْ نسويَ بنانَهُ الذي هو أطرافُه فكيفَ بغيرِها؟ وهو حالٌ مِن فاعلِ الفعلِ المقدَّرِ بعدَ ﴿بَلَىٰ﴾.

وقُرِئَ بالرَّفعِ[1]، أي: نحنُ قادرونَ.

(٥) ـ ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ عطفٌ على ﴿أَيَحْسَبُ﴾ فيجوزُ أن يكونَ استِفْهَامًا وأن يكونَ إيجابًا؛ لجوازِ أن يكونَ الإضرابُ عن المستفهَمِ وعن الاستفهامِ[2].

﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾: ليدومَ على فُجورِه فيما يستقبلهُ مِن الزَّمانِ.

---

(١) أي: (قادرون)، انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٨/ ١١٧) عن ابن أبي عبلة.

(٢) قوله: «فيجوزُ أن يكونَ استِفْهَامًا، وأن يكونَ إيجابًا» يعني في هذا العطف يجوز أمران:

الأول: أن يكون المعطوف كالمعطوف عليه استفهاما إنكاريًّا التقدير: «بل أيريد» استفهم عن شيء أولاً ثم أضرب عن الاستفهام عنه إلى الاستفهام عن أمر آخر؛ كأنه قيل: منشأ إنكار البعث: هل هو حسبان عجزنا عن البعث وجمع الأجزاء، أو إرادةُ أن يدوم على ما اعتاده من المعاصي وأنواع الفجور ـ ﴿أَمَامَهُۥ﴾؛ أي: فيما يستقبله من الزمان ـ وهو قول المصنف: «لجوازِ أن يكونَ الإضرابُ عن المستفهَمِ»؛ أي: مع بقاء أصل الاستفهام على حاله.

والأمر الثاني: أن يكون المعطوف إيجاباً، استفهم أولاً على سبيل الإنكار على حسبانه، ثم أضرب عن أصل الاستفهام إلى الإخبار عن حاله بما هو أدخل في اللوم عليه من الأول؛ كأنه قيل: دع الإنكار على حسبانه أمراً باطلا في حقنا فإن فيه ما هو أقبح من ذلك وهو أنه يحب اللذات العاجلة والحياة الفانية، وانهماكُه في قضاء شهواته يصرفه عن النظر في الدلائل المؤدية إلى تعيين الحق من الباطل وتمييز الخطأ من الصواب، فإن إنكار البعث قد ينشأ من الشبهة وقد ينشأ من متابعة الهوى وحب العاجل. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٨/ ٤١٣). ولم أجد أحداً شرح كلام المصنف بمثل ما قاله هذا العلامة.

(٦) ـ ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: متى يكونُ؟ استبعادًا أو استهزاءً.

(٧) ـ ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾: تحيَّرَ فزَعًا، مِن بَرِقَ الرَّجلُ: إذا نظرَ إلى البرقِ فدُهِشَ بصرُهُ، وقرأَ نافعٌ بالفتحِ[(١)] وهو لغةٌ، أو مِن البَرِيقِ بمَعنى: لَمَعَ مِنْ شدَّةِ شُخوصِهِ.

وقُرِئَ: (بَلِق)[(٢)] مِن بَلِقَ البابُ: إذا انفتحَ.

(٨) ـ ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾: وذهبَ ضَوْؤُه، وقُرِئَ على بناءِ المَفعولِ[(٣)].

(٩) ـ ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ في ذهابِ الضَّوءِ، أو الطُّلوعِ مِن المغربِ، ولا ينافيهِ الخسوفُ فإنَّه مُستعارٌ للمُحَاقِ.

ولمَن حملَ ذلك على أماراتِ الموتِ أَنْ يُفسِّرَ الخُسوفَ بذَهابِ ضوءِ البَصَرِ[(٤)]، والجمعَ باستتباعِ الرُّوحِ الحاسَّةَ في الذَّهابِ، أو بوُصولِه إلى مَن كانَ يَقتبسُ منه نورَ العقلِ مِن سُكَّانِ القدسِ.

وتذكير الفعلِ لتقدُّمِه وتغليبِ المَعطوفِ.

(١٠) ـ ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؛ أي: الفِرارُ، يقولُه قولَ الآيسِ مِن وجدانِه المتمنَّى[(٥)]. وقُرِئَ بالكسرِ وهو المكانُ[(٦)].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦١)، و«التيسير» (ص: ٢١٦).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٥)، و«الكشاف» (٩/ ٣٩١)، و«البحر» (٢١/ ١١١)، عن أبي السمال.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٨/ ١٢٥)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٥٤)، و«الكشاف» (٩/ ٣٩٠) و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠٣)، و«تفسير القرطبي» (٢١/ ٤١٢)، و«البحر» (٢١/ ١٠٧)، عن ابن أبي عبلة وأبي حيوة وزيد بن علي وغيرهم.

(٤) في نسخة الخيالي: «بذهاب الضوء عن البصر».

(٥) «المُتمنَّى» مفعولٌ به لـ«وُجدانِه»؛ أي: من أن يجد ما يتمناه وهو المفر.

(٦) قرأ بها جمع منهم الحسين بن علي وابن عباس والحسن وعكرمة وأيوب السختياني والزهري، انظر: =

(١١) ـ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عَن طلبِ المفرِّ ﴿لَا وَزَرَ﴾: لا ملجأَ، مُستعارٌ مِن الجبلِ، واشتقاقُهُ مِن الوِزْرِ وهو الثِّقلُ.

(١٢) ـ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾: إليه وحدَهُ استقرارُ العبادِ، أو: إلى حكمِهِ استقرارُ أمرِهِم، أو: إلى مشيئَتِه موضعُ قرارِهِم، يُدخِلُ مَن يشاءُ الجنَّةَ ومَن يَشاءُ النَّارَ.

(١٣) ـ ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾: بما قدَّمَ مِن عملٍ عَمِلَهُ وبما أخَّرَ منه لم يعمَلْه، أو: بما قدَّمَ مِن عملٍ عَمِلَه وبما أَخَّرَ مِن سُنَّةٍ حسنةٍ أو سيِّئةٍ عُمِلَ بها بعدَهُ، أو: بما قدَّمَ مِن مالٍ تصدَّقَ به وبما أخَّرَ فخلَّفَهُ، أو: بأوَّلِ عَمَلِهِ وآخرِهِ.

(١٤) ـ ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾: حجةٌ بيِّنةٌ على أعمالِها؛ لأنَّه شاهدٌ بها[1]، وصَفَها بالبَصارةِ على المجازِ، أو: عينٌ بَصيرَةٌ فلا يحتاجُ إلى الإنباءِ.

(١٥) ـ ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾: ولو جاءَ بكلِّ ما يمكنُ أن يُعتذَرَ به، جمعُ معذارٍ وهو العذرُ، أو جمعُ مَعْذِرةٍ على غيرِ قياسٍ كالمناكيرِ في المُنكَرِ، فإنَّ قياسَهُ: معاذرُ، وذلك أولى وفيهِ نَظرٌ[2].

(١٦) ـ ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ يا محمَّدُ ﴿بِهِ﴾: بالقرآنِ ﴿لِسَانَكَ﴾ قبلَ أن يَتمَّ وحيُه ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾: لتأخذَهُ على عجلةٍ مخافةَ أَنْ يَتفلَّتَ منك.

= «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٥)، و«المحتسب» (٢/ ٣٤١)، و«البحر» (٢١/ ١١٢).

(١) قولُه: «لأنَّه شاهدٌ بها»؛ أي: بالأعمالِ على نفسه في يومِ القيامةِ، حيثُ تنطقُ أعضاؤه بما عمِلَ فيكون شاهدا على نفسه بشهادة جوارحه. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٨/ ٤١٧).

(٢) قولُه: «وذلكَ أولى»؛ أي: كونُه جمعَ «مِعذارٍ» لـجَريه على القياسِ، إلاّ أنَّ في ثبوتِ المِعذارِ بمعنى العُذرِ نظرًا؛ لأنَّه لـم يُسمَعْ منَ الثِّقاتِ، أو سُمِعَ بمعنى السِّترِ، كما رُوِيَ عن الضَّحّاكِ، والجمعُ يحتملُ أن يكونَ لـ«معذِرةٍ» وأُشبِعَتْ حركتُه فمُدَّ لذلكَ، والمعذِرةُ ـ مُثلَّثَ الذّالِ ـ العُذرُ. قاله الخفاجي.

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في صدرِكَ ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾: وإثباتَ قراءَتِه في لِسانِكَ، وهو تعليلٌ للنَّهيِ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ بلسانِ جبرئيلَ عليكَ ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾: قراءَتَهُ وتكرَّرْ فيه حتى يرسخَ في ذهنِكَ.

(١٩) ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾: بيانَ ما أشكلَ عليكَ مِن مَعانيهِ، وهو دليلٌ على جوازِ تَأخيرِ البَيانِ عَن وقتِ الخطابِ، وهو اعتراضٌ بما يؤكِّدُ التَّوبيخَ على حبِّ العجلةِ؛ لأنَّ العجلةَ إذا كانَتْ مذمومةً فيما هو أهَمُّ الأمورِ وأصلُ الدِّينِ، فكيفَ بها في غيرِه؟

أو بذكرِ[١] ما اتَّفقَ في أثناءِ نزولِ هذه الآياتِ.

وقيل: الخطابُ مع الإنسانِ المذكورِ، والمعنى: أنَّه يُؤتَى كِتابَه فيتلجلَجُ لسانهُ مِن سُرعَةِ قِراءتِه خوفًا، فيقال له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا﴾ بمُقْتَضى الوَعدِ جمْعَ ما فيه مِن أَعمالِكَ وقراءتَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ﴾ قراءَتَهُ بالإقرارِ أو التَّأمُّلِ[٢] فيه، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا﴾ بيانَ أمرِهِ بالجَزاءِ عليه.

(٢٠ـ٢١) ـ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للرَّسولِ عن عادةِ العجلةِ[٣]، أو للإنسانِ عَن الاغترارِ بالعاجلِ.

---

(١) قوله: «أو بذكر» عطف على «بيان ما أشكل».

(٢) في نسخة الخيالي: «فاتبع قرآنه بالإقرار والتأمل».

(٣) قوله: «﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لرسُول الله عن عادة العَجَلَةِ» هذا الكلام من المؤلف تابع فيه الزمخشري في «الكشاف» وفيه ما لا يجوز استعمالُه في حق الأنبياء، ثم إن الزمخشري لم يكتف بذلك بل صرف النص عن ظاهره بجعل الخطاب لرسول الله في مسألة العجلة بتحريك لسانه في تلقي القرآن من جبريل، وليس المعنى عليه كما سيأتي، كما أنه ليس في عمل النبي ﷺ ما يستدعي هذا الردع والزجر، بل كل ما في الأمر هو حرصه على حفظ كتاب الله واستيعابه، وهذا مما يمدح عليه ﷺ، فكيف لرب العزة أن يخاطب رسوله بخطاب الردع بسبب خوفه على دين الله وحرصه على كتابه؟! وإنما كان الكلام الماضي إرشاداً لنبي الله ﷺ بأن يهون على نفسه، وطمأنة له بتكفل الله سبحانه =

= بحفظ كتابه أن ينساه رسوله أو يتفلت منه شيء منه، وقوله: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ المراد منه حب الدنيا والعمل لها مع ترك الآخرة والإعراض عن العمل لها والتدبر فيها، فهو متصل بقوله سبحانه: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ فإن ذاك ملوح إلى معنى ﴿بَلْ تُحِبُّونَ...﴾ وقوله عز وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ متوسط بين حبي العاجلة: حبها الذي تضمنه ﴿بَلْ يُرِيدُ...﴾ تلويحاً، وحبها الذي آذن به ﴿بَلْ تُحِبُّونَ...﴾ تصريحاً، ولعل الحكمة في هذا الاعتراض هو بيان الفرق بين الحريص على دين الله الخائف لأن ينسى منه ولو حرفا، وبين الحريص على الدنيء والملذات العاجلة الناسي لأمر الآخرة، وفيه من المديح لنبي الله ما فيه، وليس ردعاً كما قال المؤلف، بل لم يكتف بذلك حتى سماه توبيخاً كما سيأتي في جوابه عن السؤال الآتي، فإن أراد بالتوبيخ النبي ﷺ كما أراد هنا الردع فهو الطامة الكبرى، وإن أراد توبيخ الناسي على حب الدنيا وترك الآخرة فقد ناقض نفسه في تفسير الآية.

ويؤيد ما قلناه قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾، فلو كان الخطاب في ﴿تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ للنبي ردعاً عن العجلة فما علاقة ترك الآخرة بذلك، ولا شك أن النبي ﷺ ليس ممن يدع الآخرة ويحب العاجلة.

وقد أشار الرازي في «تفسيره» (٣٠/ ٧٢٩) إلى مخالفة الزمخشري للمفسرين فيما ذهب إليه، فقال: قال صَاحِبُ «الكشاف»: «﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لرسول الله ﷺ عن عادة العجلة... »، وقال سائرُ المفسرين: ﴿كَلَّا﴾ معناه: حقًّا؛ أي: حَقًّا ﴿تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾، والمعنى: أنَّهم يُحبُّون الدنيا ويعملون لها ويَتركون الآخرة ويُعرِضون عنها.

كما أشار الطيبي إلى التوسط الذي ذكرناه مع تعليل ذلك بقوله: أقول قولاً إن أصاب فمن لطف الله تعالى وفيض كرمه، وإلا فأنا أستغفر الله من ذلك: إن قوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾، متصل بقوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾، أي: يقال للإنسان عند إلقاء معاذيره: كلا، إن أعذارك غير مسموعة، لأنك فجرت وفسقت، وظننت أنك تدوم على فجورك، وأن لا حشر ولا عقاب، وذلك من حبك العاجلة والإعراض عن الآخرة، وكان من عادته صلوات الله عليه، إذا لُقِّن الوحي، أن ينازع جبريل القراءة ويتعجل فيها، وقد اتفق عند التلقين بالآيات السابقة، ما جرت به عادته من العجلة، فلما وصل إلى قوله: ﴿أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾، أوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام، بتأديبه في أخذ القراءة، وألقى إليه تلك الكلمات، ثم عاد إلى إتمام ما بُدئ به بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾. مثاله الشيخ إذا لقن درساً =

﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ تعميمٌ للخِطابِ إشعارًا بأنَّ بني آدم مَطبوعونَ على الاستعجالِ، وإن كانَ الخِطابُ للإنسانِ والمرادُ به الجنسُ فجَمعُ الضَّميرِ للمَعنى، ويؤيِّدُه قراءةُ ابنِ كثيرٍ وابنِ عامرٍ والبَصريَّينَ باليَاءِ فيهِمَا[1].

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾: بهيَّةٌ مُتهلِّلَةٌ ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ تراهُ مُستغرِقَةً في مُطالعَةِ جَمالِهِ بحيثُ تغفلُ عمَّا سِوَاهُ، ولذلك قدَّمَ المفعولَ، وليس هذا في كلِّ الأحوالِ حتى ينافيَهُ نظرُهَا إلى غيرِه.

وقيل: منتظرةٌ إنعامَهُ، ورُدَّ بأنَّ الانتظارَ لا يُسنَدُ إلى الوجهِ، وتَفسيرُهُ[2] بالجملةِ خِلافُ الظَّاهرِ، وأنَّ المستعملَ بمعناه لا يُعَدَّى بـ(إلى)، وقولُ الشَّاعرِ:

وَإِذَا نَظَـرْتُ إِلَيْـكَ مِـنْ مَـلِكٍ وَالبَحْرُ دُونَـكَ زِدْتَنِـي نِعَمَـا[3]

بمَعنى السُّؤالِ فإنَّ الانتظارَ لا يَستَعْقِبُ العَطاءَ.

(٢٤) ـ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾: شديدةُ العُبوسِ، والباسِلُ أبلَغُ من الباسِرِ، لكنَّهُ غلَبَ في الشُّجَاعِ إذا اشتدَّ كُلوحُهُ.

= تلميذه وألقى فصلاً، ويراه في أثناء ذلك يستعجل ويضطرب، فيقول له: لا تعجل، فإني إذا فرغت إن كان لك إشكال أزيله، أو تخاف فوتاً فإني أكرر لك حتى أحفظكه، ثم يأخذ الشيخ في كلامه ويتمه. وقراءة (يحبون) بالياء صريح في أن الكلام مع الإنسان، ولا يتعدى إلى غيره.

ولقد أحسن أبو حيان إذ أضرب عن نقل كلام الزمخشري، فقال في «البحر» (٢١/ ١٢٢): وقال الزمخشري: ﴿كَلَّا﴾ ردع. وذكر في كتابه ما يوقف عليه فيه.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٦)، و«التيسير» (ص: ٢١٧)، و«النشر» (٢/ ٣٩٣).

(٢) في هامش نسخة الخيالي: «أي تفسير الوجه».

(٣) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٩/ ٣٩٦).

(٢٥) ـ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾: يَتوقَّعُ أربابُها أن يُفعلَ بها فاقرةٌ: داهيةٌ تكسِرُ الفَقَارَ.

(٢٦) ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن إيثارِ الدُّنيا على الآخرةِ ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾: إذا بلغَتِ النَّفسُ أعاليَ الصَّدرِ، وإضمارُهَا مِن غيرِ ذكرٍ لدَلالةِ الكَلامِ عليها.

(٢٧) ـ ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ وقال حاضرو صاحبِها: مَن يرقيهِ ممَّا به، مِن الرُّقْيَةِ، أو قال ملائكةُ الموتِ: أيُّكُم يَرْقَى بروحهِ: ملائكةُ الرَّحمةِ أو مَلائكةُ العَذابِ، مِن الرُّقيِّ.

(٢٨) ـ ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾: وظنَّ المحتضَرُ أنَّ الذي نزلَ به فراقُ الدُّنيا ومحابِّها.

(٢٩) ـ ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾: والتوَتْ ساقُهُ بسَاقِه فلا يقدرُ تحريكَها، أو: شِدَّةُ فراقِ الدُّنيَا بشِدَّةِ خوفِ الآخرةِ.

(٣٠) ـ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾: سَوقه إلى اللهِ وحُكمِه.

(٣١) ـ ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ ما يجبُ تَصديقُهُ، أو: فلا صدَّقَ مالَه؛ أي: فلا زكَّاهُ ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ ما فُرضَ عليه، والضَّميرُ فيهما للإنسانِ المذكورِ في ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾.

(٣٢ ـ ٣٣) ـ ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطَّاعةِ ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ يتبخترُ افتِخارًا بذلك، مِن المطِّ؛ فإنَّ المُتبخترَ يمدُّ خطاهُ، فيكونُ أصلُهُ: يَتمطَّطُ.

أو مِن المطا وهو الظَّهرُ فإنَّه يُلَوِّيه.

(٣٤) ـ ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾: ويلٌ لكَ، مِن الوَلْيِ، وأصلُه: أولاكَ اللهُ ما تكرَهُه، واللامُ مزيدةٌ كما في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢]، أو: أَولَى لكَ الهَلاكُ.

وقيل: أفعَلُ مِن الويلِ بعدَ القلبِ؛ كأَدْنَى مِن «دون»، أو: فَعْلى مِن «آلَ يؤولُ» بمَعنى: عقباكَ النَّارُ.

(٣٥) ـ ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾؛ أي: يتكرَّرُ ذلك عليه مرَّةً بعدَ أُخرَى.

(٣٦) ـ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾: مُهمَلًا لا يكلَّفُ ولا يجازَى، وهو يتضمَّنُ تكريرَ إنكارِه للحشرِ، والدلالةُ عليه مِن حيثُ إنَّ الحكمةَ تَقتَضِي الأمرَ بالمَحاسنِ والنَّهيَ عَن القبائحِ، والتَّكليفُ لا يتحقَّقُ إلَّا بمُجازاةٍ، وهي قد لا تَكونُ في الدُّنيا فتكونُ في الآخرةِ.

(٣٧ ـ ٣٨) ـ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ تُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾: فقدَّرَهُ فعدَّلَهُ، وقرأ حفصٌ: ﴿يُمْنَىٰ﴾ بالتاء[1].

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾: الصِّنفينِ ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ وهو استدلالٌ آخَرُ بالإبداءِ على الإعادةِ على ما مرَّ تَقريرُهُ مرارًا، ولذلك رتَّبَ عليهِ قولَه: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

وعَن النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ: أنَّه كانَ إذا قرأَها قال: «سبحانَكَ بلى»[2].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٢)، و«التيسير» (ص: ٢١٧).

(٢) رواه أبو داود (٨٨٤)، ومن طريقه البغوي في «شرح السنة» (٦٢٤)، عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، قال: «سبحانك فبلى». فسألوه عن ذلك، قال: «سمعته من رسول الله ﷺ». ورجاله ثقات إلا أن موسى بن أبي عائشة لم يرو عن أحد من الصحابة، وروايته إنما هي عن التابعين، وقد ذكروا أنه كثير الإرسال. ويؤيد هذا رواية أبي عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ١٥١) عن موسى بن أبي عائشةَ، عن رجلٍ، عن آخرَ، عن آخرَ: أنه كان يَقرأ فوق بيتٍ له... الحديث.

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٧٣٩١)، وأبو داود (٨٨٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، مقتصراً على كلمة: «بلى»، وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن أبي هريرة. ورواه المستغفري في «فضائل القرآن» (٧٠)، وابن المنذر وابن مردويه من حديث جابر رضي اللّه عنه، كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٣٦٤). =

وعنه عليهِ السَّلامُ: «مَن قرَأَ سورةَ القيامَةِ شَهِدْتُ له أنا وجبرئيلُ يومَ القيامةِ أنَّه كانَ مُؤمِنًا بهِ»(١).

***

= ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٥٢٨) عن قتادة قال: ذُكِرَ لنا أنَّ نبي الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحانك وبلى».

ورواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ١٥١)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٣١٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً بلفظ: «سبحانك اللهم وبلى». وهكذا رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٤٠٥١) لكن دون واو قبل «بلى».

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ١٠٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٩٠)، من حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه. قال ابن الجوزي في «الموضوعات» (٤/ ٣٤٤): مصنوع بلا شك. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٧٥) سورة القيامة مكية وآياتها أربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ
عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ
ٱلۡبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴿١٠﴾
كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ
ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴿١٤﴾ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾

قد تقدم أن المقسم عليه إذا كان منتفياً جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي، والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد، والرد على ما يزعمه الجهلة من عدم بعث الأجساد، ولهذا قال تعالى: ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللَّوَّامة﴾ قال الحسن: أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة، وقال قتادة: بل أقسم بهما جميعاً، والصحيح أنه أقسم بهما معاً وهو المروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير، واختاره ابن جرير، فأما يوم القيامة فمعروف، وأما النفس اللوامة فقال الحسن البصري: إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي، ما أردت بأكلتي، ما أردت بحديث نفسي، وإن الفاجر يمضي قدماً قدماً ما يعاتب نفسه، وعن سماك أنه سأل عكرمة عن قوله ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ قال: يلوم على الخير والشر: لو فعلت كذا وكذا، وعن سعيد بن جبير قال: تلوم على الخير والشر، وقال مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه، وقال ابن عباس: اللوامة المذمومة، وقال قتادة: ﴿اللوامة﴾ الفاجرة، قال ابن جرير: وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات. وقوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه﴾؟ أي يوم القيامة، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة؟ ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ قال ابن عباس:

أن نجعله خفاً أو حافراً[1]، والظاهر من الآية أن قوله تعالى: ﴿ قادرين﴾ حال من قوله تعالى ﴿ نجمع ﴾ أي أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟ بلى سنجمعها قادرين على أن نسوي بنانه، أي قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان، فنجعل بنانه وهي أطراف أصابعه مستوية، وهذا معنى قول ابن قتيبة والزجاج، وقوله: ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه﴾ قال ابن عباس: يعني يمضي قدماً، وعنه: يقول الإنسان: أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة، ويقال: هو الكفر بالحق بين يدي القيامة، وقال مجاهد﴿ ليفجر أمامه﴾: ليمضي أمامه راكباً رأسه، وقال الحسن: لا يلفى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قدماً قدماً إلا من عصمه الله تعالى، وروي عن غير واحد من السلف: هو الذي يعجل الذنوب ويسوّف التوبة، وقال ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب، وهذا هو الأظهر من المراد، ولهذا قال بعده: ﴿ يسأل أيان يوم القيامة﴾؟ أي يقول متى يكون يوم القيامة، وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه وتكذيب لوجوده، كما قال تعالى: ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾، وقال تعالى ههنا: ﴿ فإذا برق البصر﴾ بكسر الراء أي حار كقوله تعالى: ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم﴾، والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور.

وقوله تعالى: ﴿ وخسف القمر﴾ أي ذهب ضوؤه، ﴿ وجمع الشمس والقمر﴾ قال مجاهد: كوّرا، كقوله ﴿ إذا الشمس كوّرت﴾، وقوله تعالى: ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر﴾ أي إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة، حينئذ يريد أن يفر ويقول: ﴿ أين المفر﴾؟ أي هل من ملجأ أو موئل، قال الله تعالى: ﴿ كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر﴾ قال ابن مسعود وابن عباس: أي لا نجاة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير﴾ أي ليس لكم مكان تتنكرون فيه، وكذا قال ههنا: ﴿ لا وزر﴾ أي ليس لكم مكان تعتصمون فيه، ولهذا قال: ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر﴾ أي المرجع والمصير، ثم قال تعالى: ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر﴾ أي يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها كما قال تعالى: ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾، وهكذا قال ههنا: ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره﴾ أي هو شهيد على نفسه عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر، كما قال تعالى: ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ وقال ابن عباس ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ يقول: سمعه وبصره ويديه ورجليه وجوارحه، وقال قتادة: شاهد على نفسه، وفي رواية قال: إذا شئت والله رأيته بصيراً بعيوب الناس وذنوبهم، غافلاً عن ذنوبه وكان يقال: إن في الإنجيل مكتوباً: يا ابن آدم تبصر القذاة في عين أخيك، وتترك الجذع في عينك لا تبصره، وقال مجاهد: ﴿ ولو ألقى معاذيره﴾ ولو جادل عنها فهو بصير عليها، وقال قتادة: ﴿ ولو ألقى معاذيره﴾ ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه، وقال السدي: ﴿ ولو ألقى معاذيره﴾ حجته، واختاره ابن جرير، وقال الضحاك: ولو ألقى ستوره، وأهل اليمن يسمون الستر المعذار، والصحيح قول مجاهد وأصحابه، كقوله تعالى: ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾، وكقوله تعالى: ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون

(١) وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك، قال ابن جرير: أي في الدنيا لو شاء لجعل ذلك.

لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون﴾، وقال ابن عباس: ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ هي الاعتذار ألم تسمع أنه قال: ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ ؟

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

هذا تعليم من الله عزَّ وجلَّ لرسول الله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخـذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عزَّ وجلَّ أن يستمع له، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره، وأن يبينه لـه ويوضحه، فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه، ولهذا قال تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ أي بالقرآن كما قال تعالى: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿إن علينا جمعه﴾ أي في صدرك، ﴿وقرآنه﴾ أي أن تقرأه، ﴿فإذا قرأناه﴾ أي إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى ﴿فاتبع قرآنه﴾ أي فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك، ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ أي بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا. عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك شفتيه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه﴾ قال: جمعه في صدرك، ثم تقرأه ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ أي فاستمع له وأنصت، ﴿ثم إنَّ علينا بيانه﴾ فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه»[1]. وفي رواية للبخاري: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عزَّ وجلَّ، وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه، يتلقى أوله ويحرك به شفتيه، خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾[2]. وقال ابن عباس: كان لا يفتر من القرآن مخافة أن ينساه، فقال الله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إنا علينا جمعه﴾ أن نجمعه لك ﴿وقرآنه﴾ أن نقرئك فلا تنسى، وقال ابن عباس ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ تبيين حلاله وحرامه، وكذا قال قتادة.

وقوله تعالى: ﴿كلا بل تحبون العـاجلة وتذرون الآخرة﴾ أي إنمـا يحملهم على التكذيب بيوم القيامة، أنهم إنمـا همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ من النضارة أي حسنة بهية مشرقة مسرورة، ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أي تراه عياناً، كما رواه البخاري في صحيحه: «إنكم سترون ربكم عياناً» وقـد ثبتت رؤية المؤمنين لله عزَّ وجلَّ في الدار الآخرة، في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها، لحديث أبي هريرة وهما في الصحيحين أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟»

---

(١) أخرجه أحمد ورواه البخاري ومسلم بنحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

قالوا: لا ، قال: «إنكم ترون ربكم كذلك»[1]. وفي الصحيحين عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر ، فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا»[2] ، وفي الصحيحين عن أبي موسى قال، قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله عزَّ وجلَّ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[3]. وفي مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة - قال - يقول الله تعالى تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا! ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار! قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم وهي الزيادة»، ثم تلا هذه الآية: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾[4] ، ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عزَّ وجلَّ في العرصات وفي روضات الجنات ، وروى الإمام أحمد، عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظر إلى أزواجه وخدمه، وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين»[5] ، قال الحسن ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ قال: حسنة، ﴿إلى ربها ناظرة﴾ قال: تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق، وقوله تعالى: ﴿ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة، قال قتادة: كالحة، وقال السدي: تغير ألوانها، وقال ابن زيد ﴿باسرة﴾ أي عابسة ﴿تظن﴾ أي تستيقن ﴿أن يفعل بها فاقرة﴾ قال مجاهد: داهية، وقال قتادة: شر، وقال السدي: تستيقن أنها هالكة، وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار، وهذا المقام كقوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ ، وكقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة﴾، وكقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناعمة * لسعيها راضية * في جنة عالية﴾ وأشباه ذلك من الآيات الكريمة .

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

(١) أخرجه الشيخان .
(٢) أخرجاه في الصحيحين .
(٣) رواه البخاري ومسلم .
(٤) رواه مسلم .
(٥) أخرجه أحمد والترمذي .

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار، وما عنده من الأهوال، ثبتنا الله هنالك بالقول الثابت، فقال تعالى: ﴿كلا إذا بلغت التراقي﴾ إن جعلنا (كلا) رادعة فمعناها: لست يا ابن آدم هنـاك تكذب بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عياناً، وإن جعلناها بمعنى (حقاً) فظاهر أي حقاً إذا بلغت التراقي أي انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقي جمع (ترقوة) وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق كقوله تعالى: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾، ﴿وقيل من راق﴾؟ قال ابن عباس: أي من راق يرقي؟ وقال أبو قلابة؟ أي من طبيب شاف[1]. وعن ابن عباس: ﴿وقيل من راق﴾ قيل: من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب[2]؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة، وقال ابن عباس في قوله: ﴿والتفت الساق بالساق﴾ قال: التفت عليه الدنيا والآخرة، وعنه ﴿والتفت الساق بالساق﴾ يقول: آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحمه الله، وقال عكرمة: ﴿والتفت الساق بالساق﴾ الأمر العظيم بالأمر العظيم، وقال مجاهد: بلاء ببلاء، وقال الحسن البصري: هما ساقاك إذا التفتا، وكذا قال السدي عن الحسن: هو لفهما في الكفن، وقال الضحّاك: ﴿والتفت الساق بالساق﴾ اجتمع عليه أمران: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه.

وقوله تعالى: ﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾ أي المرجع والمآب، وذلك أن الروح ترفع إلى السماوات، فيقول الله عزَّ وجلَّ: ردوا عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أُخرى، كما ورد في حديث البراء الطويل، وقوله جلَّ وعلا: ﴿فلا صدق ولا صلى ولكن كذَّب وتولى﴾ هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه، متولياً عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً، ولهذا قـال تعالى: ﴿فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى * ثم ذهب إلى أهله يتمطّى﴾ أي جذلان أشراً بطراً، لا همة له ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾، وقال تعالى: ﴿إنه كان في أهله مسروراً إنه ظن أن لن يحور﴾ أي يرجع، وقال ابن عباس: ﴿ثم ذهب إلى أهله يتمطّى﴾ أي يختال، وقال قتادة: يتبختر، قال الله تعالى: ﴿أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى﴾ وهذا تهديد ووعيد من الله تعالى للكافر، المتبختر في مشيه، أي يحق لك أن تمشي هكذا وقـد كفرت بخالقك وبارئك، وذلك على سبيل التهكم والتهديـد، كقوله تعالى: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾، وكقوله تعالى: ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾ وكقوله جلَّ جلاله: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ إلى غير ذلك، عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: ﴿أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى﴾؟ قال: قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل، ثم أنزله الله عزَّ وجلَّ[3]. وقال قتادة في قوله: ﴿أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى﴾ وعيد على أثر وعيد كما تسمعون، وزعموا أن عدو الله أبا جهل أخذ نبيُّ الله ﷺ بمجامع ثيابه ثم قال: «أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى»، فقال عدو الله أبو جهل: أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، وإني لأعز من مشى بين جبليها[4]

(١) وكذا قال قتادة والضحّاك وابن زيد.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٣) أخرجه النسائي.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن قتادة.

وقوله تعالى: ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ ؟ قال السدي: يعني لا يبعث ، وقال مجاهد: يعني لا يؤمر ولا ينهى ، والظاهر أن الآية تعم الحالين، أي ليس يترك في هذه الدنيا مهملاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث، بل هو مأمور منهي في الدنيا محشور إلى الله في الدار الآخرة، والمقصود هنا إثبات المعاد، ولهذا قال تعالى مستدلاً على الإعادة بالبداءة ﴿ ألم يك نطفة من مني يمنى ﴾ أي أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين ﴿ يمنى ﴾ أي يراق من الأصلاب في الأرحام ﴿ ثم كان علقة فخلق فسوّى ﴾ أي فصار علقة ثم مضغة ثم شكل ونفخ فيه الروح فصار خلقاً آخر سوياً، سليم الأعضاء ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره: ولهذا قال تعالى: ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ ؟ أي أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة، بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟ كقوله تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾، روى أبو داوود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من قرأ منكم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، ومن قرأ ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ فانتهى إلى قوله ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ فليقل: بلى، ومن قرأ: ﴿ والمرسلات ﴾ فبلغ ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ ؟ فليقل: آمنا بالله »[1]. وعن قتادة قوله تعالى: ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال: « سبحانك وبلى »[2]. وكان ابن عباس إذا مر بهذه الآية: ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ ؟ قال: سبحانك فبلى[3].

[آخر تفسير سورة القيامة ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه أبو داود وأحمد ، ورواه الترمذي بنحوه .

(٢) أخرجه ابن جرير .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم .

تفسير سورة القيامة

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) ولا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلاَّ لا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾ .

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه متى كان منتفياً ، جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفى . والمقسوم عليه هاهنا هو إثبات الميعاد ، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بَعث الأجساد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ ،قال الحسن : أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة . وقال قتادة : بل أقسم بهما جميعاً . هكذا [١] حكاه ابن أبى حاتم . وقد حكى ابن جرير ، عن الحسن والأعرج أنهما قرآ :« لأقسم [بيوم القيامة][٢]» ، وهذا يوجه قول الحسن ؛ لأنه أثبت القسم بيوم القيامة ونفى القسم بالنفس اللوامة . والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً كما قاله قتادة رحمه الله ، وهو المروى عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، واختاره ابن جرير.

فأما يوم القيامة فمعروف ، وأما النفس اللوامة ، فقال قرة بن خالد ، عن الحسن البصرى فى هذه الآية : إن المؤمن ــ والله ــ ما نراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتى ؟ ما أردت بأكلتى ؟ ما أردت بحديث نفسى ؟ وإن الفاجر يمضى قُدُما ما يعاتب نفسه .

وقال جُوَيْبر : بلغنا عن الحسن أنه قال فى قوله : ﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ ، قال : ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن صالح بن[٣] مسلم ، عن إسرائيل ، عن سماك : أنه سأل عِكْرِمة عن قوله : ﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ قال : يلوم [٤] على الخير والشر : لو فعلت كذا وكذا .

(١) فى م :« كذا » .
(٢) زيادة من م .
(٣) فى م : « عن» .
(٤) فى م :« تلوم » .

ورواه ابن جرير ، عن أبى كُرَيْب ، عن وكيع عن إسرائيل [١] .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان، عن ابن جُرَيج ، عن الحسن ابن مسلم، عن سعيد بن جبير فى : ﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ ، قال : تلوم على الخير والشر .

ثم رواه من وجه آخر عن سعيد أنه سأل ابن عباس عن ذلك : فقال : هى النفس اللؤوم[٢] .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : اللوامة : المذمومة .

وقال قتادة : ﴿ اللَّوَّامَةِ ﴾ : الفاجرة .

قال ابن جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة بالمعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التى تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على ما فات .

وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ أى : يوم القيامة ، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة؟ ﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ ، قال سعيد بن جُبَير والعَوفى، عن ابن عباس : أن نجعله [٣] خُفّا أو حافراً . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وابن جرير . ووجّهه ابنُ جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك فى الدنيا .

والظاهر من الآية أن قوله : ﴿ قَادِرِينَ ﴾ ، حال من قوله : ﴿ نَّجْمَعَ ﴾ أى : أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه ؟ بل سنجمعها قادرين على أن نُسَوِّى بنانه ، أى : قدرتنا صالحة لجمعها ، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان ، فنجعل بنانه ــ وهى أطراف أصابعه ــ مستوية . وهذا معنى قول ابن قتيبة ، والزجاج .

وقوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ ، قال سعيد ، عن ابن عباس : يعنى يمضى قدما .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ يعنى : الأمل ، يقول الإنسان : أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة ، ويقال : هو الكفر بالحق بين يدى القيامة .

وقال مجاهد : ﴿ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ : يمضى أمامه راكبا رأسه . وقال الحسن : لا يلقى ابنُ آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدُما قُدُما ، إلا من عصمه الله .

ورُوى عن عكرمة ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والسدى ، وغير واحد من السلف : هو الذى يَعجَل الذنوبَ ويُسوِّف التوبة .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هو الكافر يكذب بيوم الحساب . وكذا قال ابن زيد، وهذا هو الأظهر من المراد ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ ؟ أى : يقول متى يكون يوم

(١ ، ٢) تفسير الطبرى (٢٩/١٠٩) .

(٣) فى أ: « أن نحوله» .

القيامة ؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه ، وتكذيب لوجوده ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٩، ٣٠] .

وقال تعالى هاهنا: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴾ ،قال أبو عمرو بن العلاء : ﴿ بَرِقَ ﴾ بكسر الراء ،أى : حار . وهذا الذى قاله شبيه بقوله تعالى : ﴿ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤٣] ، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا ، لا يستقر لهم بصر على شىء ؛ من شدة الرعب .

وقرأ آخرون : « بَرَقَ » بالفتح ، وهو قريب فى المعنى من الأول . والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال ، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور .

وقوله : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أى : ذهب ضوؤه ، ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ ، قال مجاهد : كُوِّرا. وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ [التكوير: ١، ٢] وروُى عن ابن مسعود أنه قرأ : « وجُمع بين الشمس والقمر » .

وقوله : ﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ أى : إذا عاين ابنُ آدم هذه الأهوال يوم القيامة ، حينئذ يريد أن يفر ويقول : أين المفر ؟ أى : هل من ملجأ أو موئل ؟ قال الله تعالى : ﴿ كَلاَّ لا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ . قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف : أى لا نجاة .

وهذه كقوله : ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى: ٤٧] أى : ليس لكم مكان تتنكرون فيه ، وكذا قال هاهنا :﴿ لا وَزَرَ ﴾ أى : ليس لكم مكان تعتصمون فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ أى : المرجع والمصير .

ثم قال تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أى : يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. وهكذا قال هاهنا : ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ أى : هو شهيد على نفسه ،عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر، كما قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ يقول : سمعُه وبصرُه ويداه ورجلاه وجوارحُه .

وقال قتادة : شاهد على نفسه . وفى رواية قال : إذا شئت ــ والله ــ رأيته بصيرا بعيوب الناس وذنوبهم غافلا عن ذنوبه ، وكان يقال : إن فى الإنجيل مكتوبا : يا ابن آدم ، تُبصر القَذَاة فى عين أخيك ، وتترك الجِذْل (١) فى عينك لا تبصره .

---

(١) فى م:« وتترك الجذع » .

وقال مجاهد : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ : ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتادة : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ : ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه. وقال السدى : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ : حجته . وكذا قال ابن زيد ، والحسن البصرى ، وغيرهم . واختاره ابن جرير .

وقال قتادة ، عن زرارة ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ ، يقول : لو ألقى ثيابه .

وقال الضحاك : ولو أرخى ستوره ، وأهل اليمن يسمون الستر : المعذار .

والصحيح قول مجاهد وأصحابه ، كقوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣] ، وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة: ١٨] .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ هى الاعتذار[1] ، ألم تسمع أنه قال : ﴿ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ [غافر: ٥٢] ، وقال : ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ﴾ [النحل: ٨٧] ، ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ﴾ [النحل: ٢٨] ، وقولهم : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ .

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) ﴾ .

هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ فى كيفية تلقيه الوحى من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ، ويسابقُ المَلَكَ فى قراءته ، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحى أن يستمع له ، وتكفل له أن يجمعه فى صدره ، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه ، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه. فالحالة [2] الأولى جمعُه فى صدره ، والثانية تلاوته ، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أى : بالقرآن ، كما قال : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

ثم قال : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ أى : فى صدرك ، ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ أى : أن تقرأه ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ أى : إذا تلاه عليك الملك عن الله عز وجل ، ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أى : فاستمع له ، ثم اقرأه كما أقرأك، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أى : بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، عن أبى عَوَانة ، عن موسى بن أبى عائشة ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك شفتيه ــ قال : فقال لى ابن عباس : أنا أحرك شفتى[3] كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه . وقال

---

(١) فى أ : « هى الأعذار » . (٢) فى م : « فالحال » . (٣) فى أ : « أنا أحركهما ».

لى سعيد : وأنا أحرك شفتى كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه ـ فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ، قال : جمعه فى صدرك ، ثم تقرأه ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ : فاستمع له وأنصت ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ . فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه (١) .

وقد رواه البخارى ومسلم ، من غير وجه ، عن موسى بن أبى عائشة ، به(٢) . ولفظ البخارى: فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو يحيى التيمى ، حدثنا موسى بن أبى عائشة ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى يلقى منه شدة ، وكان إذا نزل عليه عُرف فى تحريكه شفتيه ،يتلقى أوله ويحرك شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره ، فأنزل الله : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ .

وهكذا قال الشعبى ، والحسن البصرى ، وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، وغير واحد : إن هذه الآية نزلت فى ذلك .

وقد روى ابن جرير من طريق العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال: كان لا يفتر من القراءة مخافة أن ينساه ، فقال الله : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا ﴾ أن نجمعه لك ﴿وَقُرْآنَهُ ﴾ : أن نقرئك فلا تنسى.

وقال ابن عباس وعطية العوفى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ : تبيين حلاله وحرامه . وكذا قال قتادة.

وقوله : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ أى : إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ من الوحى الحق والقرآن العظيم : أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة ، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ ، من النضارة ، أى حسنة بَهِيَّة مشرقة مسرورة ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أى : تراه عيانا ، كما رواه البخارى ، رحمه الله ، فى صحيحه : « إنكم سترون ربكم عيَانا » (٤) . وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل فى الدار الآخرة فى الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها ؛ لحديث أبى سعيد وأبى هريرة ـ وما فى الصحيحين ـ : أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : « هل تُضَارُّون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سَحَاب ؟ » قالوا : لا. قال : « فإنكم تَرَونَ ربكم كذلك»(٥) .وفى الصحيحين عن جرير قال : نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم تَرَون ربكم كما تَرَون هذا القمر ، فإن استطعتم ألا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل

(١) المسند (١/٣٤٣) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٢٧،٤٩٢٨) ، وصحيح مسلم برقم (٤٤٨) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٢٩) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٥٤، ٥٧٣، ٤٨٥) من حديث جرير رضى الله عنه .

(٥) صحيح البخارى برقم (٧٤٣٧، ٧٤٣٨) ، وصحيح مسلم برقم (١٨٢) .

غروبها فافعلوا » [١] . وفى الصحيحين عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ : « جنَّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضَّة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » [٢] . وفى أفراد مسلم ، عن صهيب ، عن النبى ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنة الجنة » قال : « يقول الله تعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تُبَيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ » قال : « فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ،وهى الزيادة » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] [٣] .

وفى أفراد مسلم ، عن جابر فى حديثه : « إن الله يَتَجلَّى للمؤمنين يضحك »[٤] ــ يعنى فى عرصات القيامة ــ ففى هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون[٥] إلى ربهم عز وجل فى العرصات ، وفى روضات الجنات .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا عبد الملك بن أبجر ، حدثنا ثُوَير[٦] بن أبى فاختة، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر فى ملكه ألفى سنة ، يرى أقصاه كما يرى أدناه ، ينظر إلى أزواجه وخدمه . وإن أفضلهم منزلة لينظر فى وجه الله كل يوم مرتين » [٧] .

ورواه الترمذى عن عبد بن حميد ، عن شَبَابة ، عن إسرائيل،عن ثُوَير قال : « سمعت ابن عمر . . ». فذكره ، قال :« ورواه عبد الملك بن أبجر ، عن ثُوَير ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، قوله » . وكذلك رواه الثورى ، عن ثُوَير ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، ولم يرفعه [٨]. ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن ، ولكن ذكرنا ذلك مفرقا فى مواضعَ من هذا التفسير ، وبالله التوفيق[٩] . وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة ،كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام . وهُدَاة الأنام .

ومن تأول ذلك بأن المراد بـ ﴿ إِلَىٰ ﴾ مفرد الآلاء ، وهى النعم ،كما قال الثورى ، عن منصور ، عن مجاهد : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، فقال تنتظر الثواب من ربها . رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد . وكذا قال أبو صالح أيضا ــ فقد أبعد هذا القائل [١٠] النجعة ، وأبطل فيما ذهب إليه . وأين هو من قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ ؟ [المطففين: ١٥]، قال الشافعى ، رحمه الله: ما حَجَب الفجار إلا وقد عَلم أن الأبرار يرونه عز وجل . ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دل عليه سياق الآية الكريمة ،وهى قوله:﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾. قال ابن جرير :

(١) صحيح البخارى برقم (٧٤٣٤ ، ٧٤٣٦) ، وصحيح مسلم برقم (٦٣٣) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٧٤٤٤) ، وصحيح مسلم برقم (١٨٠) .
(٣) صحيح مسلم برقم (١٨١) .
(٤) صحيح مسلم برقم (١٩١) .
(٥) فى م :« ينظروا » .
(٦) فى م ، أ : « حدثنا يزيد » .
(٧) المسند (٢/ ١٣) .
(٨) سنن الترمذى برقم (٣٣٣٠) .
(٩) وانظر : كتاب النهاية فى الفتن والملاحم للحافظ ابن كثير (٢/ ٣٠٠) فقد أطال فى ذكر أحاديث الرؤية.
(١٠) فى م :« الناظر » .

حدثنا محمد بن إسماعيل البخارى، حدثنا آدم، حدثنا المبارك، عن الحسن: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ قال: حسنة، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾، قال: تنظر إلى الخالق، وحُقّ لها أن تَنضُر وهى تنظر إلى الخالق [١].

وقوله: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾: هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة. قال قتادة: كالحة. وقال السدى: تغير ألوانها. وقال ابن زيد: ﴿ بَاسِرَةٌ ﴾ أى: عابسة.

﴿ تَظُنُّ ﴾ أى: تستيقن، ﴿ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾، قال مجاهد: داهية. وقال قتادة: شر. وقال السدى: تستيقن أنها هالكة. وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار.

وهذا المقام كقوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران:١٠٦]، وكقوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس:٣٨ـ ٤٢]، وكقوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ . تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾، إلى قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ . لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ [الغاشية:٢ ـ ١٠]، فى أشباه ذلك من الآيات والسياقات.

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠) ﴾.

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال ـ ثبتنا الله هناك بالقول الثابت ـ فقال تعالى: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾، إن جعلنا ﴿ كَلَّا ﴾ رادعة فمعناها: لست يا ابن آدم تكذب هناك بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عيانا. وإن جعلناها بمعنى (حقا) فظاهر، أى: حقا إذا بلغت التراقى، أى: انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقى: جمع ترقوة، وهى العظام التى بين ثغرة النحر والعاتق، كقوله: ﴿ فَلَوْلَا [٢] إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ . فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الواقعة:٨٣ ـ ٨٧]. وهكذا قال هاهنا: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾، ويذكر هاهنا حديث بُسر بن جحَاش الذى تقدم فى سورة « يس » [٣]. والتراقى: جمع ترقوة، وهى قريبة من الحلقوم.

(١) تفسير الطبرى (٢٩/ ١١٩).
(٢) فى أ: « كلا » وهو خطأ.
(٣) حديث بسر بن جحاش، رواه الإمام أحمد فى المسند (٤/ ٣١٠) من طريق جبير بن نفير، عن بسر بن جحاش: أن رسول الله ﷺ بصق يوماً فى كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: « قال الله تعالى: ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك، مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقى قلت: أتصدق وأنَّى أوان الصدقة ؟!» وقد سبق عند تفسير الآية: ٧٧ من سورة يس.

﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ قال : عكرمة ، عن ابن عباس : أى من راق يرقى ؟ وكذا قال أبو قلابة : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أى : من طبيب شاف . وكذا قال قتادة ، والضحاك ، وابن زيد .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا نصر بن على ، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبى، حدثنا عمرو بن مالك ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ قال : قيل : من يرقى بروحه : ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة .

وبهذا الإسناد ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ قال : التفت عليه الدنيا والآخرة . وكذا قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ ، يقول : آخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من أيام الآخرة ، فتلتقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله .

وقال عكرمة : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ : الأمر العظيم بالأمر العظيم . وقال مجاهد : بلاء ببلاء . وقال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ ، هما ساقاك إذا التفتا [1] . وفى رواية عنه : ماتت رجلاه فلم تحملاه ، وقد كان عليهما جوالا. وكذا قال السدى ، عن أبى مالك .

وفى رواية عن الحسن : هو لفهما فى الكفن .

وقال الضحاك : ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ : اجتمع عليه أمران : الناس يجهزون جسده ، والملائكة يجهزون روحه.

وقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ أى : المرجع والمآب ، وذلك أن الروح ترفع إلى السموات، فيقول الله عز وجل : ردوا عبدى إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . كما ورد فى حديث البراء الطويل . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ . ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢] .

وقوله : ﴿ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ . وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ : هذا إخبار عن الكافر الذى كان فى الدار الدنيا مكذبا للحق بقلبه ، متوليا عن العمل بقالبه ، فلا خير فيه باطنا ولا ظاهرا ، ولهذا قال : ﴿ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ . وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴾ أى : جذلا[2] أشرا بطرا كسلانا ، لا همة له ولا عمل ، كما قال : ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين: ٣٤] ، وقال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا . إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أى: يرجع ، ﴿ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾[الانشقاق: ١٣ــ ١٥].

وقال الضحاك : عن ابن عباس : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴾ [أى][3] : يختال . وقال قتادة ، وزيد بن أسلم : يتبختر .

قال الله تعالى : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ ، وهذا تهديد ووعيد أكيد منه تعالى للكافر به المتبختر فى مشيته ، أى : يحق لك أن تمشى هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك ، كما يقال

---

(١) فى أ : « إذا التقيا » . (٢) فى م:« أى جزلان » . (٣) زيادة من م .

فى مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان:٤٩] ، وكقوله : ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ [المرسلات:٤٦] ، وكقوله : ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٥] ، وكقوله: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت: ٤٠] . إلى غير ذلك .

وقد قال ابن أبى حاتم :حدثنا أحمد بن سنان الواسطى،حدثنا عبد الرحمن ــ يعنى ابن مهدى ــ عن إسرائيل ، عن موسى بن أبى عائشة قال : سألت سعيد بن جبير قلت : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ ؟ قال : قال النبى ﷺ لأبى جهل ، ثم نزل به القرآن .

وقال أبو عبد الرحمن النسائى : حدثنا إبراهيم بن يعقوب [١] ، حدثنا أبو النعمان ، حدثنا أبو عَوَانة ــ (ح) وحدثنا أبو داود : حدثنا محمد بن سليمان [٢] ، حدثنا أبو عوانة ــ عن موسى بن أبى عائشة ، عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ ؟ قال: قاله رسول الله ﷺ [٣] ثم أنزله الله عز وجل [٤].

قال ابن أبى حاتم : وحدثنا أبى ، حدثنا هشام بن خالد ، حدثنا شعيب بن إسحاق ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ : وعيد على أثر وعيد ، كما تسمعون ، وزعموا أن عدو الله أبا جهل أخذ نبىَّ الله بمجامع ثيابه ، ثم قال : « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » . فقال عدو الله أبو جهل : أتوعدنى يا محمد ؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئا ، وإنى لأعز من مشى بين جبليها .

وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ قال السدى : يعنى : لا يبعث .

وقال مجاهد ، والشافعى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى لا يؤمر ولا ينهى .

والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أى : ليس يترك فى هذه الدنيا مهملا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة . والمقصود هنا إثبات المعاد ، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد [٥]، ولهذا قال مستدلا على الإعادة بالبداءة فقال : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ ؟ أى : أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين ، يمنى يراق من الأصلاب فى الأرحام . ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أى : فصار علقة ، ثم مضغة ، ثم شُكّل ونفخ فيه الروح ، فصار خلقا آخر سَوياً سليم الأعضاء ، ذكرا أو أنثى بإذن الله وتقديره ؛ ولهذا قال : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴾ .

ثم قال : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ أى : أما هذا الذى أنشأ هذا الخلق السوى من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟ وتناولُ القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة ، وإما مساوية على القولين فى قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ

(١) فى م ، أ ، هـ :« يعقوب بن إبراهيم » والمثبت من سنن النسائى الكبرى (١١٦٣٨) .
(٢) فى م :« عن ابن سليمان ». (٣) فى م : « قاله رسول الله ﷺ لأبى جهل » .
(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٣٨) .
(٥) فى أ :« والفساد » .

عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧] . والأول أشهر كما تقدم فى سورة « الروم » بيانه وتقريره ، والله أعلم .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ،حدثنا شبابة ، عن شعبة ، عن موسى ابن أبى عائشة ، عن آخر : أنه كان فوق سطح يقرأ ويرفع صوته بالقرآن ، فإذا قرأ : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ ؟ قال : سبحانك اللهم فبلى .فسئل عن ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك .وقال أبو داود ، رحمه الله : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن موسى بن أبى عائشة قال : كان رجل يصلى فوق بيته ، فكان إذا قرأ : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ ؟ قال[١] : سبحانك ، فبلى ، فسألوه عن ذلك فقال : سمعته من رسول الله ﷺ .

تفرد به أبو داود [٢]، ولم يسم هذا الصحابى ، ولا يضر ذلك .

وقال أبو داود أيضا : حدثنا عبد الله بن محمد الزهرى ، حدثنا سفيان ، حدثنى إسماعيل بن أمية : سمعت أعرابيا يقول : سمعت أبا هُرَيرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ منكم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ ؟ فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين . ومن قرأ : ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فانتهى إلى : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ ؟ فليقل : بلى . ومن قرأ : ﴿وَالْمُرْسَلاتِ ﴾ فبلغ : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ فليقل: آمنا بالله» .

ورواه أحمد ، عن سفيان بن عيينة . ورواه الترمذى عن ابن أبى عمر ، عن سفيان بن عيينة[٣]. وقد رواه شعبة ، عن إسماعيل بن أمية قال : قلت له : من حدثك ؟ قال رجل صدق ، عن أبى هريرة[٤] .

وقال ابن جرير : حدثنا بشر ،حدثنا يزيد ،حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ ذُكرَ لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال : « سبحانك وبلى »[٥] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى ،حدثنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه مر بهذه الآية : ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ ؟ ، قال : سبحانك ؛ فبلى .

آخر تفسير سورة « القيامة » ولله الحمد والمنة

---

(١) فى م :« فقال » .

(٢) سنن أبى داود برقم (٨٨٤) ، ومن طريقه البيهقى فى السنن الكبرى (٢/ ٣١٠) .

(٣) سنن أبى داود برقم (٨٨٧) ، والمسند (٢/ ٢٤٩) ، وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٧) . وقد جاء تسمية هذا الأعرابى فى رواية الحاكم ، فرواه فى المستدرك (٢/ ٥١٠) من طريق يزيد بن عياض ، عن إسماعيل بن أمية ، عن أبى اليسع ، عن أبى هريرة بنحوه وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . قلت : يزيد بن عياض كذاب .

(٤) انظر : تحفة الأشراف للمزى(١١/ ١٠٥) ، وقد ذكر له متابعات أخرى .

(٥) تفسير الطبرى (٢٩/ ١٢٥) .

سورة القيامة

مكّيّة، وهي تسع وثلاثون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إدخال ﴿لَا﴾ النافية على فعل القسَم شائع، وفائدتها توكيد القسَم. قالوا: إنّها صِلة مِثلها في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد، ٢٩/٥٧]. وقيل: هي للنفي، لكنّ لا لنفي نفس الإقسام؛ بل لنفي ما يُنبئ هو عنه مِن إعظام المقسَم به وتفخيمه، كأنّ معنى ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ بكذا: "لا أعظِمه بإقسامي به حقّ إعظامه، فإنّه حقيق بأكثرَ مِن ذلك وأكثرَ".[١]

وأمّا ما قيل: مِن أنّ المعنى نفي الإقسام لوضوح الأمر فقد عرفتَ ما فيه في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة، ٧٥/٥٦]. وقيل: إنّ ﴿لَا﴾ نفيٌ وردٌّ لكلام معهود قبل القسَم، كأنّهم أنكروا البعث، فقيل: لا، أي: ليس الأمر كذلك، ثمّ قيل: أقسمُ بيوم القيامة، كقولك: لا والله إنّ البعث حقّ.[٢]

وأيًّا ما كان ففي الإقسام على تحقُّق البعث بيوم القيامة مِن الجزالة ما لا مزيدَ عليه، وقد مرّ / تفصيله في سورة يس[٣] وسورة الزخرف.[٤] [٢٤٥و]

﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ أي: بالنّفس المتّقية التي تلوم النفوسَ يومئذ على تقصيرهنّ في التقوى، ففيه طَرَف مِن البراعة التي في القَسَم السابق،

[١] الوجهان في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٦/٤.

[٢] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٦/٤.

[٣] في تفسير الآية الثالثة منها.

[٤] في تفسير الآية الرابعة منها.

أو بالنفس التي لا تزال تلوم نفسَها وإن اجتهدت في الطاعات، أو بالنفس المطمئنّة اللائمة للنفس الأمّارة.

وقيل: بالجنس، لِما رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال: «ليس مِن نفس برَّة ولا فاجرة إلّا وتلوم نفسَها يوم القيامة، إن عملتْ خيرًا قالت: كيف لم أزدَد؟ وإن عملتْ شرًّا قالت: ليتني كنت قصرتُ».[1] ولا يخفى ضعفُه، فإنّ هذا القَدْر مِن اللوم لا يكون مَدارًا للإعظام بالإقسام وإن صدر عن النفس المؤمنة المُسيئة، فكيف مِن الكافرة المندرِجة تحت الجنس. وقيل: بنفس آدمَ عليه السلام؛ فإنّها لا تزال تتلوَّم على فعلها الذّي خرجتْ به مِن الجنّة.[2]

وجواب القسَم ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ وهو "لَيُبعثنّ"، والمراد بـ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الجنس و"الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه، و"أنْ" مخفَّفة مِن الثقيلة، وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف، أي: أيحسَب أنّ الشأن لن نجمَع عظامه، فإنّ ذلك حسبان باطل، فإنّا نجمعها بعد تشتُّتها ورجوعها رميمًا ورفاتًا مختلطًا بالتراب، وبعدما سفَتها الرياح وطيَّرتها في أقطار الأرض وألقتها في البحار.

وقيل: إنّ عديّ بن أبي ربيعة خَتَنَ الأخنسِ بن شَريق[3] وهما اللذان كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول فيهما: «اللّهمّ اكفني جارَي السَّوء»، قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يا محمَّد حدّثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أَمره؟» فأخبره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «لو عاينتُ ذلك اليوم لم أصدِّقك، أوَيجمعُ الله هذه العظامَ».[4]

﴿بَلَىٰ﴾ أي: نجمعها حال كوننا ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي: نجمع سُلَامَيَاتِه ونضمّ بعضها إلى بعض كما كانت مع صغرها ولطافتها، فكيف بكِبار العِظام؟

---

[1] القول مع الحديث في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٧١/٣. وما وقفت على الحديث في مظانّه.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٤.

[3] كأنّها ضُبطت في م بضمّ الشين.

[4] بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ١١٥/٢٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٨٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٤.

أو على أن نُسوِّي أصابعه التي هي أطرافه وآخِرُ ما يتمّ به خلقه. وقُرئ: "قَادِرُونَ"[١] / أي: نحن قادرون. [٢٤٥ظ]

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ عطفٌ على ﴿أَيَحْسَبُ﴾، إمّا على أنّه استفهام مثله أُضرِب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا، أو على أنّه إيجاب انتُقِل إليه عن الاستفهام، أي: بل يريد ليدوم على فجوره فيما بين يديه مِن الأوقات وما يستقبله مِن الزمان لا يُرعوى عنه.

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: متى يكون استبعادًا أو استهزاءً.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۞ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۞ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۞ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۞ كَلَّا لَا وَزَرَ ۞ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۞ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۞ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۞ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۞﴾

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي: تحيَّر فزَعًا مِن "بَرِقَ الرجلُ" إذا نظر إلى البَرْق فدهش بصره. وقُرئ بفتح "الراء"،[٢] وهي لغة، أو مِن البريق بمعنى لمَع مِن شدّة شخوصه، وقُرئ: "بَلِقَ"[٣] أي: انفتح وانفرج.

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي: ذهب ضوءه. وقُرئ على البناء للمفعول.[٤]

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ بأن يُطلِعهما الله تعالى مِن المغرب. وقيل: جُمعا في ذهاب الضوء. وقيل: يُجمعان أسودين مُكوَّرين كأنّهما ثوران عَقيران في النار.[٥] وتذكيرُ الفعل لتقدُّمه وتغليب المعطوف.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ تقع هذه الأمور ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي: الفرار

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة والصَّرصري والمَلَطي عن أبي بكر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٣؛ المغني في القراءات للنّوزاواوزي، ص ١٨٥٧.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة وابن قُطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٤؛ المغني في القراءات للنّوزاواوزي، ص ١٨٥٩.

٥ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٨/٤.

يأسًا منه. وقُرئ بالكسر،[١] أي: موضع الفرار. وقد جُوّز أن يكون هو أيضًا مصدرًا كـ"المَرجِع".[٢]

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ مِن طلب المفرّ وتمنّيه ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا مَلجأ، مُستعار مِن الجبل. وقيل: كلّ ما التجأتَ إليه وتخلّصت به فهو وَزَرك.[٣]

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي: إليه وحدَه استقرارُ العباد، أو إلى حكمه استقرارُ أمرهم، أو إلى مشيئته موضعُ قرارهم، يُدخِل مَن يشاء الجنّة ومَن يشاء النار.

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يُخبَر كلّ امرئ برًّا كان أو فاجرًا عند وزن الأعمال ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ أي: عمِل مِن عَمَل خيرًا كان أو شرًّا، فيُثاب بالأوّل ويُعاقَب بالثاني، ﴿وَأَخَّرَ﴾ أي: لم يعمَل خيرًا كان أو شرًّا، فيُعاقَب بالأوّل ويُثاب بالثاني، أو بما قدّم مِن حسنة أو سيّئة وبما أخّر مِن سُنّة حسَنة أو سيّئة فعُمل بها بعده، أو بما قدّم / مِن مال تصدّق به في حياته وبما أخَّر فخلّفه أو وَقَفه أو أوصى به، [٢٤٦و] أو بأوّل عمله وآخرِه.

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ أي: حجّة بيّنة على نفسه شاهدة بما صدَر عنه مِن الأعمال السيّئة، كما يُعرِب عنه كلمة ﴿عَلَىٰ﴾ وما سيأتي مِن الجملة الحاليّة، وُصفت بالبَصارة مجازًا، كما وُصفت الآيات بالإبصار في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل، ١٣/٢٧]؛ أو عين بصيرة، أو "التاء" للمبالغة، ومعنى ﴿بَلْ﴾ الترقّي، أي: ينبّأ الإنسان بأعماله؛ بل هو يومئذ عالمٌ بتفاصيل أحواله شاهِدٌ على نفسه؛ لأنّ جوارحه تنطِق بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي: ولو جاء بكلّ مَعذِرة يمكن أن يُعتذَر بها عن نفسه، حالٌ مِن المُستكِنّ في ﴿بَصِيرَةٌ﴾ أو مِن مرفوع ﴿يُنَبَّؤُا۟﴾، أي: هو بصيرة على نفسه تشهَد عليه جوارحه وتُقبل شهادتها، ولو اعتذَر بكلّ معذِرة،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسين بن عليّ والحسن بن يزيد وابن عبّاس والزُّهري وعكرمة وأيّوب السختياني وأبي حَيْوَة وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٥٩.

[٢] ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٤٩٨/٤.

[٣] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٨/٤.

أو يُنبَأ بأعماله ولو اعتذر... إلخ. والمعاذير اسم جمع للمَعذِرة، كـ"المَناكير" اسم جمع لـ"المُنكَر". وقيل: هو جمع "مِعذار" وهو الستر، أي: ولو أرخى سُتوره.[١]

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾

كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا لُقِّن الوحيَ نازع جبريلَ عليه السلام القراءةَ ولم يصبر إلى أن يُتمَّها مُسارعةً إلى الحفظ وخوفًا مِن أن يتفلّت منه، فأُمِر عليه السلام بأن يستنصت له مُلقيًا إليه قلبه وسمعه حتّى يُقضى إليه الوحي ثمّ يقفِّيه بالدراسة إلى أن يرسَخ فيه.[٢] فقيل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿لِسَانَكَ﴾ عند إلقاء الوحي ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي: لتأخُذه على عجَلة مخافةَ أن يتفلّت منك.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في صدرك بحيث لا يذهب عليك شيء مِن معانيه ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: إثبات قراءته في لسانك.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: أتممنا قراءته عليك بلسان جبريلَ عليه السلام. وإسنادُ القراءة إلى نون العظمة للمبالغة في إيجاب التأنّي. ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فكن مقفِّيًا له ولا تُراسله.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: بيان ما أشكَل عليك مِن معانيه وأحكَامه.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ له صلّى الله عليه وسلّم عن عادة العجَلة، وترغيبٌ له في الأناة، وأكّد ذلك / بقوله تعالى: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۞ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ على تعميم الخطاب للكلّ، أي: بل أنتم يا بني آدمَ لِما خُلِقتم مِن عَجَل وجُبِلتم عليه تعجَلون في كلّ شيء، ولذلك تُحبُّون العاجلة وتذرون الآخرة. وقيل: ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للإنسان عن الاغترار بالعاجل،[٣] فيكون جَمْع الضمير في الفعلين باعتبار معنى الجنس، ويُؤيِّده قراءة الفعلين على صيغة الغَيبة.[٤] [٢٤٦ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٩٨. وهو مرويّ بمعناه عن السدّي في جامع البيان للطبري، ٢٣/٤٩٥.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢٣/٤٩٦-٤٩٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٢٨٣-٢٨٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٤٩٨.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٧٣.

٤ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٣.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ أي: وجوه كثيرة، وهي وجوه المؤمنين المخلِصين يوم إذ تقوم القيامة بَهيّة متهلِّلة يُشاهَد عليها نضرة النعيم، على أنّ ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ و﴿نَاضِرَةٌ﴾ خبره و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ منصوب بـ﴿نَاضِرَةٌ﴾. و﴿نَاظِرَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ خبر ثانٍ للمبتدأ، أو نعت لـ﴿نَاضِرَةٌ﴾، و﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ متعلِّق بـ﴿نَاظِرَةٌ﴾. وصحّة وقوع النكرة مبتدأ؛ لأنّ المقام مقامُ تفصيل، لا على أنّ ﴿نَاضِرَةٌ﴾ صفة لـ﴿وُجُوهٌ﴾ والخبر ﴿نَاظِرَةٌ﴾ كما قيل،[1] لِما هو المشهور مِن أنّ حقّ الصفة أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع، وحيث لم يكن ثبوت النُّضرة للوجوه كذلك فحقُّه أن يُخبَر به.

ومعنى كونِها ناظرةً إلى ربّها أنّها تراه تعالى مُستغرقةً في مُطالعة جماله بحيث تغفل عمّا سواه، وتُشاهِده تعالى بلا كيفٍ ولا على جهة، وليس هذا في جميع الأحوال حتّى ينافيَه نظرُها إلى غيره. وقيل: مُنتظِرة إنعامَه.[2] ورُدّ بأنّ الانتظار لا يُسنَد إلى "الوجه". وتفسيره بالجملة خلافُ الظاهر، وأنّ المُستعمَل بمعناه لا يعدّى بـ"إلى".[3]

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ شديدة العُبوس وهي وجوه الكفَرة.

﴿تَظُنُّ﴾ يتوقّع أربابها ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ داهية عظيمة تقصِم فَقار الظهر.

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن إيثار العاجلة على الآخرة، أي: ارتدِعوا عن ذلك وتنبَّهوا لِما بين أيديكم مِن الموت الذي ينقطع عنده ما بينكم وبين العاجلة مِن العلاقة. ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ أي: بلغت النفسُ أعاليَ الصدر وهي العِظام المُكتنِفة لثُغرة النَّحر عن يمين وشمال.

---

[1] الوجه في اللباب لابن عادل، ٥٦٢/١٩.
[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٩٩/٤.
[3] القول وردُّه بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٧٣/٣-٤٧٤.

﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ أي: قال مَن حضَر صاحبَها: "مَن يرقيه ويُنجيه ممّا هو فيه" مِن الرُّقية. وقيل: هو مِن كلام ملائكة الموت: أيُّكم يَرْقى بروحه، ملائكةُ الرحمة أو ملائكةُ العذاب؟ مِن الرُّقيّ.[1]

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾ وأيقَنَ المُحتضَر أنّ ما نزَل به الفراق مِن الدنيا ونعيمها.

﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ والتفّتْ ساقُه بساقه والتوَت عليها عند قلق الموت. وقيل: هما شدّة فِراق الدنيا وشدّة / إقبال الآخرة.[2] وقيل: هما ساقاه حين تُلفّان في أكفانه.[3] [٢٤٧و]

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ أي: إلى الله وإلى حُكمه يُساق لا إلى غيره.

﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ ما يجب تصديقه مِن الرسول عليه السلام والقرآنِ الذي نزَل عليه، أو فلا صدّق ماله ولا زكّاه. ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ ما فُرض عليه. والضمير فيهما لـ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ المذكور في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾.[4] وفيه دلالة على أنّ الكفّار مخاطَبون بالفروع في حقّ المؤاخَذة كما مرّ.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ ما ذُكر مِن الرسول والقرآن ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ يتبختر افتخارًا بذلك مِن المطّ، فإنّ المتبختر يمدّ خُطاه، فيكون أصله يتمطّط أو مِن المطا وهو الظهر، فإنّه يلويه.

﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ﴾ أي: ويلٌ لك، وأصله أولاك الله ما تكرهه، و"اللام" مَزيدة كما في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل، ٧٢/٢٧]، أو أولى لك الهلاك. وقيل: هو "أفعل" مِن "الويل" بعد القلب، كـ"أدنى" مِن "دون"، أو "فَعْلَى" مِن "آل يئول" بمعنى عُقباك النار.

﴿ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾ أي: يتكرَّر عليه ذلك مرّةً بعد أخرى.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٠/٤.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٠/٤.

٣ مرويّ عن الحسن وسعيد بن المسيّب في جامع البيان للطبري، ٥١٩/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٨٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٠/٤.

٤ في الآية الثالثة مِن هذه السورة.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي: يُخلّى مُهمَلًا فلا يكلَّف ولا يُجزى. وقيل: أن يُترك في قبره فلا يُبعث.[1]

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾... إلى آخره، استئنافٌ واردٌ لإبطال الحسبان المذكور، فإنّ مداره لمّا كان استبعادَهم للإعادة استُدلّ على تحقُّقها ببدء الخلق.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي: بقدرة الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا[2] ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون، ١٤/٢٣]. ﴿فَخَلَقَ﴾ أي: فقدَّر بأن جَعَلها مُضغةً مخلَّقةً ﴿فَسَوَّىٰ﴾ فعدّل وكمّل نشأته.

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ مِن الإنسان ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ أي: الصنفين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ بدل مِن الزوجين.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ العظيمُ الشأنِ الذي أنشأ هذا الإنشاء البديع ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وهو أهون مِن البدء في قياس العقل.

[٢٤٧ظ] روي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان إذا قرأها / قال: «سبحانك بلى».[3] وعنه عليه السلام: «مَن قرأ سورة القيامة شهدتُ له أنا وجبريلُ يوم القيامة أنّه كان مؤمنًا بيوم القيامة».[4]

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٥٧٧/١٩.

٢ م س: جعلنا.

٣ سنن أبي داود، ١٦١/٢ (٨٨٤)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٤٤٠/٣ (١٩٢٩)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨٨/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٠/٤.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٨/٢٨ (القيامة، ١/٧٥)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٩٠/٤ (القيامة، ١/٧٥)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠١/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٧٥

سورة القيامة

مكية، وهي أربعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ٢ ـ ﴿لا﴾ زائدةٌ في الموضعين ﴿أُقسِمُ بِيَومِ القِيامةِ، ولا أُقسِمُ بِالنَّفسِ اللَّوّامةِ﴾ التي تلوم نفسها، وإن اجتهدت في الإحسان. وجوابُ القسم محذوف، أي: لتُبعَثُنَّ. دلّ عليه: ٣ ـ ﴿أيَحسِبُ الإنسانُ﴾ أي: الكافر ﴿أن لَن نَجمَعَ عِظامَهُ﴾ للبعث والإحياء؟ ٤ ـ ﴿بَلَى﴾ نجمعُها ﴿قادِرينَ﴾......

سورة القيامة

قولُهُ: (زَائِدَةٌ) إدخالُ النَّافيَةِ على فعلِ القسمِ للتأكيدِ شائعٌ في كلامِ العربِ، وقرأ المكِّيُّ بخُلْفٍ عن البزيِّ بغيرِ ألِفٍ بعد اللامِ في الأوَّل[1]؛ أي: لَأَنا أقسِم، فاللامُ لامُ الابتِداءِ.

قولُهُ: (الَّتِي تَلُومُ نَفسَهَا) أو الجِنسِ؛ لما رويَ أنّه ﷺ قال: «ليسَ مِن نَفسٍ بَرَّةٍ ولا فاجِرَةٍ إلا وتَلُومُ نَفسَها يَومَ القِيامَةِ، إن عَمِلَت خَيراً قالت: كيفَ لم أَزِد! وإن عَمِلتْ شَرًّا قالت: لَيتَنِي كُنتُ قَصَّرتُ»[2].

قولُهُ: (أي: الكَافِر) يعني: الجِنس، وإسنادُ الفعلِ إليهِ؛ لأنَّ فيهم من يحسَبُ، أو الذي نزَلَ فيه وهو عُديُّ بن ربيعَةَ سألَ رسولَ اللهِ ﷺ عن أمرِ القيامَةِ، فأخبرَهُ به فقالَ: لو عايَنتُ ذلك اليومَ لم أُصدِّقكَ[3]، أو يجمعَ الله هذه العِظامَ.

---

(١) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٦٠٩).

(٢) لم أقف عليه مسنداً، وذكره الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٢٠٨) دون نسبته حديثاً.

(٣) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٨/ ١١٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٤٨).

مع جمعها ﴿عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ ـ وهو الأصابع ـ أي: نُعيدَ عِظامها كما كانت مع صِغرها. فكيف بالكبيرة؟ ٥ ـ ﴿بَلْ يُرِيدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ﴾ ـ اللام: زائدة. ونصبه بـ«أنْ» مُقدّرةً ـ أي: أن يُكذّب ﴿أَمَامَهُۥ﴾ أي: يومَ القيامة. دلّ عليه: ٦ ـ ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ﴾: متى ﴿يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ سُؤالَ استهزاء وتكذيب؟

٧ ـ ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾، بكسر الراء وفتحها: دَهِش وتَحيّرَ لِما رأى ممّا كان يُكذّب به، ٨ ـ ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾: أظلم وذهب ضوءُه، ٩ ـ ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ فطلعا من المغرب، أو ذهب ضوءُهما ـ وذلك في يوم القيامة ـ ١٠ ـ ﴿يَقُولُ الإنسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ الفِرار؟ ١١ ـ ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ عن طلب الفِرار، ﴿لَا وَزَرَ﴾: لا ملجأ يُتحصّن به. ١٢ ـ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾: مُستقرّ الخلائق فيُحاسَبون ويُجازَون. ١٣ ـ ﴿يُنَبَّأُ الإنسانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾: بأوّل عمله وآخره. ١٤ ـ ﴿بَلِ الإنسانُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾: شاهدٌ تنطِق جوارحُه بعمله ـ والهاء: للمبالغة ـ فلا بُدّ من جزائه، ١٥ ـ ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾: جمعُ مَعذِرة على غير قياس، ....

قولُهُ: (مَعَ جَمعِهَا) حالٌ من فاعِلِ الفعلِ المقدَّرِ بعد: ﴿بَلَىٰ﴾.

قولُهُ: (وَهُوَ الأَصَابِعُ) أو أطرافُها، جمعُ: بنانَةٍ[1].

قولُهُ: (أَن يُكَذِّبَ) أو يَدومَ على فُجورِهِ فيما يستَقبلُهُ من الزَّمانِ.

قولُهُ: (مَتَى) أصلُهُ: أيُّ آنٍ.

قولُهُ: (استِهزَاءٍ) أو استِبعادٍ.

قولُهُ: (وفَتحِهَا) نافعٌ[2].

قولُهُ: (الفِرَارُ) وقرئَ بالكَسرِ[3] وهو المكانُ، قالَ بعضُ الحُكماءِ: الأرضُ نقطَةٌ، والإنسانُ هدفٌ والأفلاكُ قِسيٌّ، والحوادِثُ سهامٌ، والرَّامي هو اللهُ تعالى، فأينَ المفَرُّ.

قولُهُ: (مُستَقَرُّ الخَلائِقِ) أي: إليه وحدَهُ استِقرارُ العِبادِ، أو إلى حُكمِهِ استِقرارُ أمرِهِم، أو إلى مشيئتِهِ موضِعُ قرارِهِم يُدخِلُ من يشاءُ الجنَّةَ، ومن يشاءُ النَّارَ.

قولُهُ: (بأوَّلِ عَمَلِهِ) أو بما قدَّمَ من عمَلٍ عَمِلَهُ، وبما أَخَّرَ منه لم يعمله.

قولُهُ: (عَلى غَيرِ قِيَاسٍ) فإنَّ قياسَهُ مُعاذِر.

---

(١) انظر: «الصحاح» (٥/ ٢٠٨١).

(٢) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٨٩).

(٣) قرأ ابن عباس وعكرمة وأيوب السختياني بكسر الفاء، وعن الزهري بكسر الميم، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٩٤).

أي: لو جاء بكُلّ معذرة ما قُبلت منه.

قال تعالى لنبيّه: ١٦ ـ ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ﴾: بالقرآن قبل فراغ جِبريلَ منه ﴿لِسانَكَ، لِتَعجَلَ بِهِ﴾ خوفَ أن ينفلت منك. ١٧ ـ ﴿إنَّ علَينا جَمعَهُ﴾ في صدرك ﴿وقُرآنَهُ﴾: قِراءتك إياه، أي: جَرَيانَه على لسانك ـ ١٨ ـ ﴿فإذا قَرأْناهُ﴾ عليك بقِراءة جِبريلَ ﴿فاتَّبِعْ قُرآنَهُ﴾: استمع قِراءته. فكان ﷺ يستمع، ثمّ يقرؤه ـ ١٩ ـ ﴿ثُمَّ إنَّ عَلَينا بَيانَهُ﴾ بالتفهيم لك. والمُناسبة بين هذه الآية وما قبلها أنّ تلك تضمّنت الإعراض عن آيات الله، وهذه تضمّنت المُبادرة إليها بحفظها.

٢٠ ـ ﴿كَلاّ﴾: استفتاحٌ بمعنى: ألا ﴿بَل يُحِبُّونَ العاجِلَةَ﴾: الدنيا ـ بالياء والتاء، في الفعلين ـ ٢١ ـ ﴿ويَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ فلا يعملون لها، ....

قولُهُ: (بِكُلِّ مَعذِرَةٍ) أو بكُلِّ ما يمكِنُ أن يتعذَّرَ به، جمعُ: مِعذارٍ، وهو العُذرُ، كمفتاحٍ ومفاتيحَ قياساً، وهذا هو الأصَحُّ.

قولُهُ: (خَوفَ) أي: لتأخُذَه على عجَلَةٍ مخافَةَ.

قولُهُ: (أي: جَرَيَانَهُ) وإثباتَ قراءَتِه.

قولُهُ: (بقِرَاءَةِ جِبرِيلَ) أي: بلسانِه.

قولُهُ: (بالتَّفهِيمِ لَكَ) أي: بيانَ ما أشكَلَ عليكَ من معانيه، والمرادُ: بيانُ التَّفسيرِ إجماعاً، كذا «التَّلوِيحِ»[1]، وذكرَ السلميُّ في «تفسيرِه»[2]: قيل للنَّبيِّ ﷺ: لا تستَعِنْ بنفسِكَ على شيءٍ من أسبابِكَ، فإنَّا لا نَكِلُكَ إلى نفسِكَ، بل نتولَّاكَ في جميعِ أمورِكَ.

قولُهُ: (استِفتَاح) أو رَدعٌ للإنسانِ على الاغتِرارِ بالعاجِلِ.

قولُهُ: (باليَاءِ) الغيبَة، مكِّيٌّ وبصريٌّ وشاميٌّ[3].

قولُهُ: (فَلا يَعمَلُونَ لَها) قيل: من أحبَّ الدُّنيا وأقبَلَ عليها وطلبَها فليتيقَّن بفَوتِ حظِّهِ من الآخِرَةِ، وقالَ ﷺ: «مَن أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بدُنياهُ، ومَن أَحَبَّ دُنياهُ أَضَرَّ بآخِرَتِهِ، فآثِرُوا ما يَبقَى على ما يَفنَى»[4].

---

(١) انظر: «شرح التلويح على التوضيح» (٢/ ٣٥).

(٢) انظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٣٦١).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٧).

(٤) رواه أحمد في «مسنده» (١٩٦٩٧)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٥٦٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٩)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٥٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. وتعقبه الذهبي فقال: فيه انقطاع.

٢٢ ـ ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ﴾ أي: في يوم القيامة ﴿نَاضِرَةٌ﴾: حسنةٌ مُضيئة، ٢٣ ـ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: يرون اللهَ ـ سبحانه وتعالى ـ في الآخرة، ٢٤ ـ ﴿وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٌ﴾: كالحةٌ شديدة العُبوس، ٢٥ ـ ﴿تَظُنُّ﴾: تُوقِن ﴿أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾: داهية عظيمة تكسر فَقارَ الظهر.

٢٦ ـ ﴿كَلَّآ﴾ بمعنى: ألا ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفسُ ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾: عِظامَ الحلق، ٢٧ ـ ﴿وَقِيلَ﴾ قال مَن حولَه: ﴿مَنۡۜ رَاقٖ﴾ يَرقِيه ليُشفى؟ ٢٨ ـ ﴿وَظَنَّ﴾: أيقنَ مَن بلغتْ نفسه ذلك ﴿أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾ فراق الدنيا، ٢٩ ـ ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي: إحدى ساقَيه بالأُخرى عِند الموت، أو التفّتْ شِدّة فِراق الدنيا بشِدّة إقبال الآخرة، ....

قولُهُ: (حَسَنَةٌ) عبرَّ بالوجوهِ عن الذَّواتِ.

قولُهُ تَعالَى: (﴿نَاظِرَةٌ﴾) تراهُ مُستغرقةً في مُطالعَةِ جمالِهِ بحيثُ تغفُلُ عمَّا سواهُ، ولذلك قدَّمَ المفعولَ، وليس هذا في كلِّ الأحوالِ حتَّى يُنافيهِ نظرُها إلى غيره.

قولُهُ: (تُوقِنُ) ويتوقَّعُ أربابُها.

قولُهُ: (فَقَارَ الظَّهرِ) جمعُ: الفَقارَةِ ـ بالفتحِ ـ: ما انتضَدَ من عظامِ الصُّلبِ من لَدنِ الكاهِلِ إلى العَجبِ.

قولُهُ: (بِمَعنَى: أَلَا) أو رَدعٌ عن إيثارِ الدُّنيا على العُقبى.

قولُهُ: (النَّفسُ) وإضمارُها من غيرِ ذكرٍ لدلالَةِ الكَلامِ عليها.

قولُهُ: (عِظَامَ الحَلقِ) أو أعاليَ الصُّدورِ.

قولُهُ: (مَن حَولَهُ) أي: حاضِروا صاحِبِها.

قولُهُ: (يَرقِيهِ) بكسرِ القافِ، ممَّا به، من الرُّقيةِ ـ بالضمِّ ـ العَوذَةُ، أو قال ملائكةُ الموتِ: أيُّكُم يَرقى بروحِهِ؟ ملائكةُ الرَّحمَةِ أو ملائكةُ العذابِ؟ من الرُّقيِّ من بابِ عَلِمَ.

قولُهُ: (مَن بَلَغَت نَفسُهُ) أي: المحتَضَر.

قولُهُ: (فِرَاقُ الدُّنيَا) أي: الذي نزَلَ به فِراقُ الدُّنيا ومَحابِّها.

قولُهُ: (بالأُخرَى) أي: القُوت[1].

قولُهُ: (التَفَّت) أي: اتَّصلت.

قولُهُ: (إِقبَالِ الآخِرَةِ) وهولِها.

---

(١) كذا في الأصول، ولعل الصواب: التَوَت، كما في بعض التفاسير.

٣٠ ـ ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ أي: السَّوقُ. وهذا يدلّ على العامل في «إذا». المعنى: إذا بلغتِ النفس الحُلقومَ تُساق إلى حُكم ربّها.

٣١ ـ ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ الإنسانُ ﴿وَلَا صَلَّى﴾ أي: لم يُصدّق ولم يصلِّ، ٣٢ ـ ﴿وَلَكِن كَذَّبَ﴾ بالقُرآن ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الإيمان، ٣٣ ـ ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾: يتبختر في مِشيته إعجابًا. ٣٤ ـ ﴿أَوْلَى لَكَ﴾ ـ فيه التفات عن الغَيبة. والكلمة اسمُ فعلٍ. واللام: للتبيين ـ أي: وَلِيَكَ ما تكره! ﴿فَأَوْلَى﴾ أي: فهو أولى بك من غيرك، ٣٥ ـ ﴿ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾: تأكيدٌ!

٣٦ ـ ﴿أَيَحْسَبُ﴾: يظنّ ﴿الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾: هَمَلاً، لا يُكلّف بالشرائع؟ أي: لا يَحسِبْ ذلك. ٣٧ ـ ﴿أَلَمْ يَكُ﴾ أي: كان ﴿نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ تُمْنَى﴾، بالتاء والياء: تُصبّ في الرحم،............

قولُهُ: (أي: السَّوقُ) أي: سوقُهُ إلى الله تعالى وحُكمِه.

قولُهُ: (الإنسانُ) المذكورُ في: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ﴾ قالَ مُجاهِد وغيرُهُ: نزلَت في أبي جَهلٍ، أخرجَهُ ابنُ أبي حاتِمٍ، كذا في «المبهمات»[1].

قولُهُ: (أي: لَم يُصَدِّق) ما يجِبُ تصديقُهُ، أو لم يتصَدَّق بمالِهِ فيما يجبُ عليه.

قولُهُ: (إِعجَاباً) أو افتِخاراً بذلك، من المطِّ بمعنى: المدِّ؛ فإنَّ المتَبَختِرَ يمُدُّ خُطاهُ فيكونُ أصلُهُ: يتمطَّطُ، أو منَ المطا، وهو الظَّهرُ فإنَّه يُلَوِّيهِ.

قولُهُ: (واللَّامُ لِلتَّبيِينِ) وقيل أصلُهُ: أولاكَ اللهُ ما تكرَهُهُ؛ أي: قرَّبَكَ، واللامُ مزيدَةٌ، أو أولى لك الهَلاكَ، وهو الأظهَرُ.

قولُهُ: (تَأكِيدٌ) أي: يتكرَّرُ ذلك عليه مرَّةً بعدَ أخرى.

قولُهُ: (هَملاً) أي: مُهمَلاً.

قولُهُ: (لا يُكَلَّفُ) ولا يُجازِي.

قولُهُ: (أي: كانَ) يعني: الاستفهامُ للإنكارِ، ونفيُ النَّفيِ إثباتٌ.

قولُهُ: (والياء) التَّذكيرُ، حفصٌ[2].

---

(١) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١١٣). وانظر «تفسير الطبري» (٢٤/ ٨١).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٧).

٣٨ ـ ﴿ثُمَّ كانَ﴾ المنيُّ ﴿عَلَقَةً، فخَلَقَ﴾ الله منها الإنسانَ ﴿فسَوَّى﴾: عدّل أعضاءه، ٣٩ ـ ﴿فجَعَلَ مِنهُ﴾: من المنيّ الذي صار علقة: قِطعة دم، ثمّ مُضغة أي: قِطعة لحم ﴿الزَّوجَينِ﴾: النوعين ﴿الذَّكَرَ والأُنثَى﴾ يجتمعان تارة، وينفرد كُلّ منهما عن الآخر تارة؟ ٤٠ ـ ﴿أَلَيسَ ذلِكَ﴾ الفعّالُ لهذه الأشياءِ ﴿بِقادِرٍ علَى أن يُحيِيَ المَوتَى﴾؟ قال ﷺ: بَلَى.

قولُهُ: (يَجتَمِعَانِ) أي: النَّوعانِ في بَطنٍ واحدٍ.

قولُهُ: (بَلَى) وفي روايَةٍ: «سُبحانَكَ بَلى»[1]، واللهُ سبحانَهُ وتعالى أعلمُ.

***

---

(١) رواه أبو داود (٨٨٤)، وعبد الرزاق في «التفسير» (٣٤١٩)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٦٩٢) عن موسى بن أبي عائشة عن رجل من الصحابة.

قال ابن كثير: لم يسم هذا الصحابي ولا يضر ذلك.

سُورَةُ القِيَامَةِ

ويقال لها: سورة «لا أقسم» وهي مكِّيَّة من غير حكاية خلاف ولا استثناء.

واختلف في عدد آيها؛ ففي الكوفيِّ أربعون، وفي غيره تسع وثلاثون، والخلاف في ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [الآية: ١٦].

ولمَّا قال سبحانه وتعالى في آخِر المدَّثِّر: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۝٥٣﴾ بعد ذكر الجنَّة والنار، وكان عدم خوفهم إيَّاها لإنكارهم البعثَ، ذَكَرَ جلَّ وعلا في هذه السورة الدليلَ عليه بأتمِّ وجه، ووصف يوم القيامة وأهواله وأحواله، ثم ذَكَر ما قَبْل ذلك مِن خروج الرُّوح مِن البَدَن، ثم ما قَبْلُ مِن مبدأ الخَلْق، على عكس الترتيب الواقعيّ، فقال عزَّ مِن قائل عظيم:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾ إدخال «لا» النافية صورةً على فِعْل القَسَم مستفيضٌ في كلامهم وأشعارهم، قال امرؤ القيس:

لا وأبيكِ ابنةَ العامريْ ... ي لا يدَّعي القومُ أنِّي أفِرُّ[1]

وقول غُوَيَّة بنِ سُلْمِيٍّ يرثي:

ألا نادتْ أمامةُ باحتمالِ ... لِتَحْزُنَني فلا بِكِ ما أُبالي[2]

(١) سلف ٦/١١٧.

(٢) سلف ٦/١١٧.

وملخَّص ما ذهب إليه جارُ الله[١] في ذلك أنَّ «لا» هذه إذا وقعت في خِلال الكلام، كقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥] فهي صلة تزاد لتأكيد القَسَم، مِثْلُها في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ [الحديد: ٢٩] لتأكيد العلم، وأنَّها إذا وقعت ابتداءً كما في هذه السورة وسورة البلد[٢] فهي للنفي؛ لأنَّ الصلة إنَّما تكون في وسط الكلام. ووَجْهُه أن إنشاء القَسَم يتضمَّن الإخبار عن تعظيم المقسَم به، فهو نفي لذلك الخبر الضمني على سبيل الكناية، والمراد أنَّه لا يَعظم بالقَسَم؛ لأنَّه في نفسه عظيم أَقسمَ به أوْ لا، ويترقَّى مِن هذا التعظيم إلى تأكيد المقسَم عليه، إذ المبالغة في تعظيم المقسَم به تتضمَّن المبالغة فيه، فما يختلج في بعض الخواطر مِن أنَّه يلزم أن يكون على هذا إخباراً لا إنشاء فلا يستحقُّ جواباً، وأنَّ المعنى على تعظيم المقسَم عليه لا المقسَم به، مدفوع.

ووراء ذلك أقوال، فقيل: إنَّها لنفي الإقسام لوضوح الأمر.

وقال الفرَّاء: لنفي كلام معهود قبل القَسَم وردِّه، فكأنَّهم هنا أنكروا البعث، فقيل: لا، أي: الأمر كذلك، ثم قيل: «أقسم بيوم القيامة». وقدح الإمامُ فيه بإعادة حرف النفي بَعْدُ[٣].

وقيل: إنَّها ليست «لا»، وإنَّما اللام أشبعت فتحتها فظهر مِن ذلك الألف، والأصل: لأُقسِمُ، كما قرأ به قنبل، وروي عن البزيِّ والحسنِ[٤]، وهي لام الابتداء عند بعضٍ، والأصل: لأنَا أقسم، وحذف المبتدأ للعلم به، ولام التأكيد دخلت على الفعل المضارع، كما في: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [النحل: ١٢٤] والأصل: إنِّي لأُقْسِم، عند بعض، ولام القَسَم ولم يصحبها نون التوكيد ـ لعدم

---

(١) الكشاف ٤/ ١٨٩.

(٢) في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [الآية: ١].

(٣) التفسير الكبير ٣٠/ ٢١٥.

(٤) التيسير ص٢١٦، والنشر ٢/ ٢٨٢ بخلفٍ عن البزي، والمحتسب ٢/ ٣٤١، وتفسير البيضاوي ٨/ ٢٨٠.

لزوم ذلك، وإنَّما هو أغلبيٌّ على ما حكي عن سيبويه[١]، مع الاعتماد على المعنى ـ عند آخرين.

وقال الجمهور: إنَّها صلة، واختاره جار الله في «المفصَّل»[٢]، وما ذكر من الاختصاص غيرُ مسلَّم؛ لأنَّ الزيادة إذا ثبتت في القَسَم فلا فرقَ بين أوَّل الكلام أو وسطه، لا أنَّه مسلَّم لكنَّ القرآنَ في حكم سورة واحدة متَّصل بعضه ببعض؛ لأنَّ كونه كذلك بالنسبة إلى التناقض ونحوه، لا بالنسبة إلى مِثْل هذا الحكم، ثم فَهْمُ ما ذَكَره في توجيه النفي مِن اللفظ بعيدٌ، وحال سائر الأقوال غيرُ خفيٍّ، وقد مرَّ بعض الكلام في ذلك، فتذكَّر.

والكلام في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ على ذلك النمط، بيدَ أنَّه قيل على قراءة: «لأُقْسِم» فيما قَبْل أنَّ المراد هنا النفي، على معنى: إنِّي لأقسم بيوم القيامة لشرفِه، ولا أُقسم بالنفس اللوامة لخسَّتها. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ما يقتضيه[٣]، وحكاه في «البحر»[٤] عن الحسن.

وقال قتادة في هذه النفس: هي الفاجرة الجَشِعَة اللوَّامة لصاحبها على ما فاته مِن سعي الدنيا وأغراضها. وجاء نحوُه في رواية عن ابنِ عباس، والحقُّ أنَّه تفسيرٌ لا يناسب هذا المقام، ولذلك قيل: هي النفس المتَّقية التي تلوم النفوسَ يومَ القيامة على تقصيرهنَّ في التقوى، والمبالغة بكثرة المفعول. وقال مجاهد: هي التي تَلُوم نفسها على ما فات، وتَندم على الشَّرِّ لِمَ فَعَلَتْه، وعلى الخير لِمَ لَمْ تستكثر منه، فهي لم تزل لائمة وإن اجتهدت في الطاعات، فالمبالغة في الكيف باعتبار الدوام.

وقيل: المراد بالنفس اللوَّامة جنسُ النفسِ الشاملة للتقيَّة والفاجرة؛ لما روي أنَّه ﷺ قال: «ليس مِن نفس برَّة ولا فاجرة إلا وتلومُ نفسَها يومَ القيامة، إن عملت

---

(١) ينظر الكتاب ٣/ ٥١٨.
(٢) ٨/ ١٣٦ مع شرحه لابن يعيش.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٨٧، وتفسير الطبري ٢٣/ ٤٦٧-٤٦٨.
(٤) ٨/ ٣٨٥.

خيراً قالت: كيف لَم أَزِدْ منه؟ وإن عملت شرًّا، قالت: ليتني قصرْتُ»[1]، وضمُّها إلى يوم القيامة؛ لأنَّ المقصودَ مِن إقامتها مُجَازاتُها وبَعْثُها فيه. وضعِّف بأنَّ هذا القَدْر مِن اللوم لا يكون مداراً للإعظام بالإقسام، وإن صدر عن النفس المؤمنة المسيئة، فكيف من الكافرة المندرجة تحت الجنس؟ وأجيبَ بأنَّ القَسَم بها حينئذٍ بقَطْع النظر عن الصفة، والنفسُ مِن حيث هي شريفةٌ؛ لأنَّها الروح التي هي مِن عظيم أمر الله عزَّ وجلَّ. وفيه أنَّه لا يَظهر لِذِكْر الوصف حينئذٍ فائدة. والإمام[2] أوقف الخبرَ على ابنِ عباس، واعترضه بثلاثة أوجه[3]، وأجاب عنها بحَمْل اللومِ على تمنِّي الزيادة وتمنِّي أن لم يكن ما وَقَع من المعصية واقعاً، وما ذكر مِن توجيه الضَّمِّ لا يخصُّ هذا الوجه كما لا يخفى.

وقيل: المراد بها نفسُ آدم عليه السلام، فإنَّها لم تَزَل تلوم نفسَها على فعلها الذي خرجت به مِن الجنَّة.

وأكثر الصوفيَّة على أنَّ النفسَ اللوَّامة فوقَ الأمَّارة وتحت المُطْمَئِنَّة، وعرَّفوا الأمارة: بأنَّها هي التي تميل إلى الطبيعة البدنيَّة، وتأمُر باللَّذات والشهوات الحسيَّة، وتجذب القلبَ إلى الجهة السفليَّة، وقالوا: هي مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة.

وعرَّفوا اللوَّامة: بأنَّها هي التي تنوَّرت بنور القلب قَدْر ما تنبَّهت عن سِنَة الغفلة، فكلَّما صدر عنها سيئة بحكم جبلَّتها الظلمانيَّة، أخذت تلوم نفسَها ونفرت عنها.

وعرَّفوا المُطْمَئنَّة: بأنَّها التي تمَّ تنوُّرها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة، وتخلَّقت بالأخلاق الحميدة، وسكنت عن منازعة الطبيعة.

---

(١) لم نقف عليه مسنداً، بل ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٠٨، ونقله عنه الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٩٠ ولم ينسبه لأحد. وذكره الرازي ٣٠/ ٢١٥بنحوه موقوفاً على ابن عباس كما سيرد.

(٢) في التفسير الكبير ٣٠/ ٢١٥.

(٣) وهو: السير والسلوك إلى ملك الملوك في التصوف للشيخ قاسم بن صلاح الدين الخاني الحلبي الصوفي المتوفى سنة (١١٠٩هـ). إيضاح المكنون ٢/ ٣٤.

ومنهم مَن قال في اللوَّامة: هي المطمئنَّة اللائمة للنفس الأمَّارة. ومنهم مَن قال: هي فوق المطمئنة، وهي التي ترشَّحت لتأديب غيرها. إلى غير ذلك.

والمشهور عنهم تقسيم مراتِب النَّفْس إلى سبعٍ، منها هذه الثلاثة، وفي «سير السلوك إلى مَلِكِ الملوك»[1] كلام نفيس في ذلك فليراجعه مَن شاء.

وجواب القَسَم ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ وهو: ليُبْعثنَّ. وقيل: هو «أيحسب» إلخ، وقيل: «بلى قادرين»، وكلاهما ليسا بشيء أصلاً، كَزَعْمِ عدم الاحتياج إلى جواب؛ لأنَّ المرادَ نفيُ الإقسام.

والمراد بالإنسان الجنس، والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه، و«أنْ» مخفَّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، أي: أيحسب أنَّ الشأنَ لن نجمع بعد التفرُّق عظامَه، وحاصله: لِمَ يكون هذا الحسبانُ الفارغ عن الأمارة المنافي لحقِّ اليقين وصريحِه، والنسبة إلى الجنس؛ لأنَّ فيه مَن يحسب ذلك، بل لعلَّه الأكثرون.

وجوِّز أن يكون التعريف للعهد، والمراد بالإنسان عديُّ بنُ أبي ربيعة خَتَنُ الأخنس بنِ شَرِيق، وهما اللَّذان كان النبيُّ ﷺ يقول فيهما: «اللَّهمَّ اكفني جارَي السوء»، فقد روي أنَّه جاء إليه عليه الصلاة والسلام، فقال: يا محمَّد حدِّثني عن يوم القيامة متى يكون، وكيف يكون أمره؟ فأَخبره رسولُ الله ﷺ، فقال: لو عاينتُ ذلك اليوم لم أُصدِّقْك يا محمَّد، ولم أومِن به، أوَ يجمع اللهُ تعالى هذه العظام، فنزلت. وقيل: أبو جهل، فقد روي أنَّه كان يقول: أيزعم محمَّد أن يجمعَ اللهُ تعالى هذه العظام بعد بلائِها وتفرُّقها فيعيدها خَلْقاً جديداً، فنزلت[2]. وليس كإرادة الجنس، وسببُ النزول لا يُعينه، وذِكْر العظام ـ وإن المعنى على إعادة الإنسان وجَمْع أجزائه المتفرِّقة ـ لما أنَّها قالب الخَلْق.

---

(١) تفسير الثعلبي ١٠/ ٨٢، وأسباب النزول للواحدي ص٤٧٧، والكشاف ٤/ ١٩٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢١، وجاء في المصادر عدا تفسير الثعلبي: ولم أومن بك...

(٢) زاد المسير ٨/ ٤١٦، وتفسير الرازي ٣٠/ ٢١٧ عن ابن عباس ﵄، والكلام من البحر ٨/ ٣٨٥.

وقرأ قتادة: «تُجْمَعَ» بالتاء الفوقيَّة مبنياً للمفعول، «عِظَامُهُ» بالرفع على النيابة[(١)].

﴿بَلَىٰ﴾ أي: نجمعها بعد تفرُّقها ورجوعها رميماً ورفاتاً في بطون البحار وفسيحات القِفَار وحيثما كانت، حال كوننا ﴿قَٰدِرِينَ﴾ فـ «قادرين» حال مِن فاعل الفعل المقدَّر بعد «بلى»، وهو قول سيبويه[(٢)]. وقيل: منصوب على أنَّه خبر «كان»، أي: بلى كنَّا قادرين في البَدْء أَفَلا نقدر في الإعادة. وهو كما ترى.

وقيل: انتصب لأنَّه وقع في موضع نقدر، إذ التقدير: بلى نقدر، فلما وُضعَ موضع الفعل نُصبَ، حكاه مكِّيّ[(٣)]، وقال: إنَّه بعيد مِن الصواب يَلزم عليه نصبُ قائم في قولك: مررتُ برجلٍ قائم؛ لأنَّه في موضع: يقوم. فتأمَّل.

وقرأ ابنُ أبي عبلة وابنُ السَّمَيْفع: «قادرون»[(٤)] أي: نحن قادرون.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ هي اسمُ جنس جمعي، واحده: بَنَانة، وفسَّرها الراغب بالأصابع، ثم قال: قيل: سُمِّيت بذلك لأنَّ بها صلاحَ الأحوال التي يمكن للإنسان أن يُبِنَّ بها ما يريد، أي: يقيم[(٥)]. وغيره: بما صَغُرَ من عظام الأطراف كاليدين والرجلين، وفي «القاموس»: البَنَان: الأصابع، أو أطرافها[(٦)].

فالمعنى: نجمع العظامَ قادرين على تأليف جميعها وإعادتها إلى التركيب الأوَّل، وإلى[(٧)] «أن نسوِّي» أصابعه التي هي أطرافه وآخِر ما يتمُّ به خَلْقه. أو على «أن نسوِّي» ونَضُمَّ سُلَامَيَاته على صِغَرها ولطافتها بعضها إلى بعض، كما كانت أوَّلاً مِن غير نقصان ولا تفاوت، فكيف[(٨)] بكبار العظام وما ليس في الأطراف منها.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٩٠، والبحر ٨/ ٣٨٥.
(٢) الكتاب ١/ ٣٤٦.
(٣) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٧٦.
(٤) الكشاف ٤/ ١٩٠، والبحر ٨/ ٣٨٥.
(٥) المفردات (برَّ).
(٦) القاموس (بنن).
(٧) في الكشاف ٤/ ١٩٠ (والكلام منه): إلى، بدل: وإلى.
(٨) في الأصل و(م): بكيف. والمثبت من الكشاف.

وفي الحال المذكورة، أعني: «قادرين على» إلخ بعد الدلالة على التقييد تأكيدٌ لمعنى الفعل، لأنَّ الجمعَ مِن الأفعال التي لا بُدَّ فيها مِن القدرة، فإذا قيّد بالقدرة البالغة فقد أكّد، والوجه الأوّل مِن المعنى يدلُّ على تصوير الجمع، وأنَّه لا تفاوتَ بين الإعادة والبدْءِ في الاشتمال على جميع الأجزاء التي كان بها قوام البَدَن أو كمالُه، والثاني يدلُّ على تحقيق الجمع التامِّ، فإنَّه إذا قَدَر على جَمْع الألطفِ الأبعدِ عادةً عن الإعادة، فعلى جَمْعِ غيرِه أقدرُ، ولعلَّه الأوفق بالمقام، ويُعلَم منهما نكتةُ تخصيصِ البَنَان بالذِّكْر.

وقيل: المعنى: بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نسوِّي أصابعَ يديه ورجليه بأن نجعلها مستويةً شيئاً واحداً كخفِّ البعير وحافرِ الحمار، ولا نفرِّق بينها فلا يمكنه أن يعملَ بها شيئاً ممَّا يعمل بأصابعه المفرَّقة ذات المفاصل والأنامل مِن فنون الأعمال والبَسْط والقَبْض والتأتِّي لما يريد مِن الحوائج، وروي هذا عنِ ابنِ عباس وقتادة ومجاهد وعكرمة والضحاك، ولعلَّ المرادَ: نجمعها ونحن قادرون على التسوية وقتَ الجَمْع، فالكلام يفيد المبالغة السابقة لكن مِن وجه آخَر، وهو أنَّه سبحانه إذا قَدَر على إعادته على وجه يتضمَّن تبديلَ بعضِ الأجزاء، فعلى الاحتذاء بالمثال الأوَّل في جميعه أقدر.

وأبو حيَّان حكى هذا المعنى عن الجمهور، لكن قيَّد التسويةَ فيه بكونها في الدنيا، وقال: إنَّ في الكلام عليه توعُّداً، ثم تعقَّب ذلك بأنَّه خلافُ الظاهر المقصود مِن سوق الكلام(١)، والأمر كما قال لو كان كما فعل، فلا تغفل.

ولا يَخفى أنَّ في الإتيان بـ «لا» أوّلاً، وحذفِ جوابِ القَسَم، والإتيان بقوله سبحانه: «أيحسب»، ورعاية أسلوب:

وثنـــايـــاكِ إنَّـــهـــا إغـــريـــضُ(٢)

في القَسَم بيوم البعث والمبعوث فيه، ثم إيثارِ لفظ الحسبان، والإتيانِ بهمزة

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٨٥.

(٢) البيت لأبي تمام، وسلف عند تفسير الآية (٣) من سورة الزخرف.

الإنكار مسنداً إلى الجنس وبحرف الإيجاب والحال بعدها = من المبالغات في تحقيق المطلوب وتفخيمِه وتهجينِ المُعرِض عن الاستعداد له ما تُبهر عجائبه.

ثم الحُسْنُ كلُّ الحُسْنِ في ضمن حرفِ الإضراب في قوله سبحانه: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾ وهو عطف على «أيحسب» جيءَ به[1] للإضراب عن إنكار الحسبان إلى الإخبار عن حال الإنسان الحاسب بما هو أَدْخَلُ في اللوم والتوبيخ مِن الأوَّل، كأنَّه قيل: دَعْ تعنيفه فإنَّه أشطُّ مِن ذلك، وأنَّى يَرتدِعُ وهو يريد ليدومَ على فجوره فيما بين يديه مِن الأوقات وفيما يستقبله مِن الزمان لا ينزع عنه، أو هو عطف على «يحسب» منسحباً عليه الاستفهام، أو على «أيحسب» مقدَّراً فيه ذلك، أي: بل أيُريد[2]، جيءَ به زيادةَ إنكار في إرادته هذه، وتنبيهاً على أنَّها أفظع مِن الأوَّل؛ للدلالة على أنَّ ذلك الحسبان بمجرَّده إرادة الفجور، كما تقول في تهديد جَمْعٍ عَاثُوا في البلد: أَيحسبونَ أنْ لا يدخل الأمير، بل يريدون أن يتملَّكوا فيه! لم تقل هذا إلا وأنت مترقٍّ في الإنكار مُنْزِلٌ عَيْثهم منزلةَ إرادة التملُّك وعدم العِبْءِ بمكان الأمير.

وإلى هذين الوجهين أشار جار الله[3] على ما قرَّر في «الكشف»، والوجه الأوَّل أبلغ؛ لأنَّ هذا على الترقِّي، والأول إضراب عن الإنكار وإيهام أنَّ الأمر أطمُّ مِن ذلك وأطمُّ، وفيهما إيماء إلى أنَّ ذلك الإنسان عالمٌ بوقوع الحشر، ولكنَّه مُتَغابٍ، واعتبر الدوام في «ليفجر»؛ لأنَّه خبر عن حال الفاجر بأنَّه يريدُ ليفجرَ في المستقبَل، على أنَّ حسبانه وإرادته هما عينُ الفجور، وقيل: لأنَّ «أمامه» ظرفُ مكان استُعير هنا للزمان المستقبَل فيفيد الاستمرارَ.

وفي إعادة المُظْهَرِ ثانياً ما لا يَخفى مِن التهديد والنعي على قبيح ما ارتكبه، وأنَّ الإنسانيَّةَ تأبى هذا الحسبان والإرادة، وعودُ ضمير «أمامه» على هذا المظهَرِ هو الأظهر، وعن ابن عباس ما يقتضي عودَه على «يوم القيامة»، والأوَّل هو الذي

---

(١) قوله: به، ساقط من (م).
(٢) قوله: أيريد، تحرف في (م) إلى: أريد.
(٣) الكشاف ٤/ ١٩٠.

يقتضيه كلامُ كثير من السلف لكنَّه ظاهر في عموم الفجور، قال مجاهد والحسن وعكرمة وابن جبير والضحاك والسُّدِّيُّ في الآية: إنَّ الإنسان إنَّما يريد شهواته ومعاصيه ليمضي فيها أبداً قُدُماً راكباً رأسه ومطيعاً أَمَله ومسوِّفاً لتوبته. وهو حَسَن لا يأبى ذلك الإضراب، وفيه إشارة إلى أنَّ مفعول «يريد» محذوف دلَّ عليه «ليفجر»، وقال بعضهم: هو منزَّل منزلة اللازم[1]، ومصدره مقدَّر بلام الاستغراق، أي: يُوقع جميع إرادته ليفجر.

وعن الخليل وسيبويه ومَن تبعهما في مثله: إنَّ الفعل مقدَّر بمصدر مرفوع بالابتداء، وليفعل خبر، فالتقدير هنا: بل إرادةُ الإنسان كائنةٌ ليفجر[2].

﴿يَسْئَلُ﴾ سؤالَ استهزاء ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝٦﴾ أي: متى يكون، والجملة قيل: حال، وقيل: تفسير «ليفجر»، وقيل: بدل منه. واختار المحقِّقون أنَّه استئناف بيانيٌّ جِيْءَ به تعليلاً لإرادة الدوام على الفجور، إذ هو في معنى: لأنَّه أنكر البعثَ واستهزأ به، وفيه أنَّ مَن أنكر البعثَ لا محالةَ يرتكب أشدَّ الفجور، وطرف مِن قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٦-٣٧].

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧﴾ تحيَّر فَزَعاً، وأصله مِن بَرِقَ الرجلُ: إذا نَظَر إلى البرق فدُهِشَ بصرُه، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

ولو أنَّ لقمانَ الحكيمَ تَعرَّضتْ لعينَيْه ميٌّ سافراً كادَ يَبْرقُ[3]

ونظيره: قَمِرَ الرجل: إذا نَظَر إلى القمر فدُهِشَ بصرُه، وكذلك ذَهِبَ وبَقِرَ للدَّهش مِن النظر إلى الذَّهَب والبَقَر، فهو استعارة أو مجاز مُرسَل؛ لاستعماله في لازمه أو في المطلق.

وقرأ نافع وزيد بن ثابت وزيد بن عليٍّ وأبان عن عاصم وهارون ومحبوب

---

(١) في (م): اللام.
(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٨١.
(٣) ديوان ذي الرُّمَّة ١/ ٤٦١، وسافراً: يعني بارزة الوجه مسفرته.

كلاهما عن أبي عمرو وخَلْق آخرون: «بَرَقَ» بفتح الراء[1]، فقيل: هي لغة في «بَرِق» بالكسر، وقيل: هو مِن البَرِيق بمعنى: لَمَعَ من شدَّة شُخوصه.

وقرأ أبو السَّمَّال: «بَلَقَ» باللام عوض الراء[2]، أي: انفتح وانفرج، يقال: بَلِقَ البابُ وأَبْلَقته وبَلَقته: فتحته، هذا قول أهل اللغة إلا الفرَّاء فإنَّه يقول: بَلَقه وأَبْلَقه: إذا أغلقه. وخطَّأه ثعلب، وزعم بعضهم أنَّه مِن الأضداد. والظاهر أنَّ اللامَ فيه أصليَّة، وجوّز أن تكون بدلاً مِن الراء، فهما يتعاقبان في بعض الكَلِم نحو: نَثَر ونَثَل، و: وَجِرَ ووَجِلَ.

﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨﴾ ذَهَبَ ضوءُه، وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة وزيد بن عليٍّ ويزيد بن قطيب: «خُسِفَ القمرُ» على البناء للمفعول[3].

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩﴾ حيث يُطلعهما اللهُ تعالى مِن المغرب على ما روي عن ابنِ مسعود، ولا ينافيه الخسوف إذ ليس المرادُ به مصطلحَ أهل الهيئة، وهو ذهابُ نورِ القمر لتقابل النَّيِّرين وحيلولةِ الأرض بينهما، بل ذهاب نورِه لتجلٍّ خاصٍّ في ذلك اليوم، أو لاجتماعه مع الشمسِ وهو المحاقُ. وجوّز أن يكون الخسوف بالمعنى الاصطلاحيِّ ويعتبر في وَسَط الشهر مثلاً، ويعتبر الجمع في آخِره، إذ لا دلالة على اتحاد وقتَيْهما في النظم الجليل، وأنتَ تعلم أنَّ هذا خسوفٌ يزري بحال أهل الهيئة، ولا يكاد يخطر لهم ببال، كالجمع المذكور.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر عن عطاء بنِ يسار قال: يُجمعان ثم يُقذفان في البحر، فيكون نار الله الكبرى[4]. وتوسعةُ البحر أو تصغيرُهما ممَّا لا يُعجِزُ اللهَ عزَّ وجلَّ، وأحوال يوم القيامة على خلاف النمط الطبيعيِّ، وحوادثه أمورٌ وراءَ الطبيعة، فلا يقال: أين البحر مِن جِرْم القمر فضلاً عن جِرْم الشمس الذي هو بالنسبة إليها كالبعوضة بالنسبة إلى الفيل؟! ولا: كيف يُجمعان ويُقذَفان؟!

(١) التيسير ص ٢١٦، والنشر ٢/ ٣٩٣ عن نافع وأبي جعفر، والكلام من البحر ٨/ ٣٨٥.
(٢) القراءات الشاذة ص ١٦٥، والبحر ٨/ ٣٨٥ والكلام وما بعده منه.
(٣) الكشاف ٤/ ١٩١، والبحر ٨/ ٣٨٦.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٨٨، وتفسير الطبري ٢٣/ ٤٨٢.

وقيل: يُجمعان أسودَيْن مكوَّرين كأنَّهما ثوران عقيران في النار.

وعن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه وابنِ عباس: يُجمعان ويُجعلان في نورِ الحجب.

وقيل: يُجمعان ويقرَّبان من الناس فيلحقهم العَرَقُ لشدَّة الحرِّ.

وقيل: جُمعا في ذهاب الضوء، وروي عن مجاهد، وهو اختيار الفرَّاء والزجَّاج[١]، فالجمع مجازٌ عن التساوي صفةً، وفيه بُعْدٌ؛ إذ كان الظاهر عند إرادة ذلك أن يُقال من أوَّل الأمر: وخسفَ الشمس والقمر، ولا غبارَ في نسبة الخسوف إليهما لغةً، وكذا الكسوف.

ولم يَلحق الفعلَ علامةُ التأنيث؛ لتقدُّمه وكون الشمس مؤنَّثاً مجازيًّا، وفي مثله يجوز الأمران، وكأنَّ اختيارَ تَرْكِ الإلحاق؛ لرعاية حال القمر المعطوف، وقال الكسائيُّ: إنَّ التذكيرَ حُملَ على المعنى، والتقدير: جُمع النوران، أو: الضياءان، وليس بذاك.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ تقع هذه الأمور: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾ أي: الفِرار، يأساً منه، وجوِّز إبقاؤه على حقيقة الاستفهام لدهشته وتحيُّره.

وقرأ الحسن ريحانةُ رسولِ الله ﷺ والحسن بنُ زيد وابنُ عبَّاس ومجاهد وعكرمة وجماعة كثيرة: «المَفِرُّ» بفتح الميم وكسر الفاء[٢]، اسم مكان قياسي مِن يَفِرُّ بالكسر، أي: أين موضع الفِرار، وجوّز أن يكون مصدراً أيضاً كالمرجع.

وقرأ الحسن البَصْري: بكسر الميم وفتح الفاء[٣]، ونسبها ابنُ عطيَّة[٤] للزهريِّ، أي: الجيِّد الفِرار، وأكثر ما يُستعمل هذا الوزن في الآلات وفي صفات الخيل، ومنه قوله:

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٩، وللزجاج ٥/ ٢٥٢.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٥، والمحتسب ٢/ ٣٤١، والبحر ٨/ ٣٨٦.

(٣) المحتسب ٢/ ٣٤١، والبحر ٨/ ٣٨٦.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٣.

مِـكَـرٍّ مِـفَـرٍّ مُـقْـبِـلٍ مُـدْبِـرٍ مـعـاً كَجُلمودِ صخرٍ حطَّه السيلُ مِن عَلِ[(١)]

واختلف في هذا اليوم، فالأكثرون على أنَّه يوم القيامة، وهو المنصور. وأخرج ابنُ المنذر وغيره عن مجاهد أنَّه قال: «فإذا بَرِقَ البصر» عند الموت والاحتضار، «وخَسَفَ القمرُ وجُمعَ الشمسُ والقمرُ»، أي: كُوِّرا يوم القيامة[(٢)].

وجوّز أن يكون الأخيرانِ عند الموت أيضاً، ويفسَّر الخسوفُ بذهاب ضوء البَصَر منه، وجَمعُ الشمس والقمر باستتباع الروحِ حاسَّة البَصَر في الذهاب، والتعبير بالشمس عن الروح، وبالقمر عن حاسَّة البَصَر، على نهج الاستعارة، فإنَّ نورَ البَصَر بسبب الروح، كما أنَّ نورَ القمر بسبب الشمس، أو يفسَّر الخسوفُ بما سمعتَ، وجَمْعُ الشمس والقمر بوصول الروحِ الإنسانيَّة إلى مَن كانت تقتبس منه نورَ العقل، وهم الأرواح القدسيَّة المنزَّهة عن النقائص، فالقمر مستعار للروح، والشمس لسكان حظيرة القُدُس والملأ الأعلى، لأنَّ الروحَ تقتبسُ منهم الأنوار اقتباسَ القَمَرِ مِن الشمس، ووجه الاتِّصال بما قَبْلُ على جَعْلِ الكُلِّ عند الموت أنَّه إذ ذاك ينكشفُ الأمر للإنسان، فيَعلمَ على أتمِّ وجه حقِّيَّةَ ما أُخبر به، وأنتَ تَعلم أنَّ هذا على عِلَّاته أقربُ إلى باب الإشارة على منزع الصوفيَّة، وإذا فُتحَ هذا الباب فلا حَصْر فيما ذكر مِن الاحتمال عند ذوي الألباب.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن طلب المفرِّ وتمنِّيه ﴿لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾ لا مَلْجأ، وأصله الجَبَل المنيع، وقد كان مفرًّا في الغالب لِفرار العرب، واشتقاقه مِن الوِزْرِ وهو الثِّقْل، ثم شاع وصار حقيقةً لكلِّ مَلْجأ مِن جبل أو حِصْن أو سلاح أو رجل أو غير ذلك، ومنه قوله:

لَـعَـمْـرُكَ مَـا لـلـفـتـى مِـن وَزَرْ مِـنَ الـمـوتِ يُـدْرِكـه والـكِـبَـرْ[(٣)]

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ أي: إليه جلَّ وعلا وحدَه استقرارُ العباد، أي:

---

(١) البيت لامرئ القيس، وسلف عند تفسير الآية (٤٢) من سورة إبراهيم.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٨٨ وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن جرير [في التفسير ٢٣/ ٤٨٢].

(٣) البيت أورده القرطبي في التفسير ٢١/ ٤١٤، وأبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٨٢، والسمين الحلبي في الدر المصون ١٠/ ٥٧٠، ولم ينسبوه.

لا مَلْجأ ولا مَنْجى لهم غيره عزَّ وجلَّ، أو: إلى حكمه تعالى استقرارُ أمرهم لا يَحكُم فيه غيره سبحانه، أو: إلى مشيئته تعالى موضعُ قرارهم مِن جنَّة أو نار، فمَن شاء سبحانه أدخله الجنَّة، ومَن شاء أدخله النار، فتقديمُ الخبر لإفادة الاختصاص، وإن اختلف وجهه حسَب اختلاف المراد بمستقر.

و«كلا لا وَزَر» يحتمل أن يكون مِن كلامه تعالى، يقال للقائل: أين المفرُّ؟ يومَ يقوله، أو: هو مقولُ اليومَ على معنى: ليرتدع عن طَلَب الفرارِ وتمنِّيه ذلك اليوم، ويحتمل أن يكون مِن تمام قولِ الإنسان، كأنَّه بعد أن يقول: أين المفرُّ؟ يعود على نفسِه فيستدرك، ويقول: «كلا لا وَزَر». وأيًّا ما كان، فالظاهر أنَّ قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ استئنافٌ كالتعليل للجملة قَبْله، أو تحقيقٌ وكشفٌ لحقيقة الحالِ، والخطاب فيه لسيِّد المخاطَبين ﷺ، ولا يَحسُن أن يكون مِن جملة ما يُخاطَب به القائل ذلك اليوم، ولا ممَّا يقوله لنفسه فيه، لمكان «يومئذٍ»، وفي «البحر»: الظاهر أنَّ قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ مِن تمام قول الإنسان، وقيل: هو مِن كلام الله تعالى لا حكاية عن الإنسان[1]. انتهى. وفيه بحث.

وجوّز أن تكون «كلَّا» بمعنى «أَلَا» الاستفتاحيَّة، أو بمعنى: حقًّا، فتأمَّل ولا تغفل.

﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يُخبر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وذلك ـ على ما عليه الأكثر ـ عند وَزْنِ الأعمال ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ أي: بما عمل مِن عملٍ، خيراً كان أو شرًّا، فيثاب بالأوَّل ويُعاقب على الثاني ﴿وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ أي: تَرَك ولم يَعمل، خيراً كان أو شرًّا، فيعاقبُ بالأوَّل ويُثاب بالثاني. أو: بما قدَّم مِن حسنة أو سيئة[2]، وبما أخَّر: ما سَنَّه مِن حسنة أو سيئة يُعمل بها بَعْدَه، أخرج ذلك ابنُ المنذر وعبد بنُ حميد وغيرُهما عن ابنِ مسعود، وهو رواية عن ابنِ عباس[3].

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٨٦.

(٢) كذا في الأصل و(م)، وفي الكشاف ٤/ ١٩١، وتفسير البيضاوي ٨/ ٢٨٢، وتفسير أبي السعود ٩/ ٦٦: وبما أخَّر من سنَّةٍ حسنة أو سيئة. . .

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٨٨، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٣٤، والطبري ٢٣/ ٤٨٩.

وقال زيد بن أسلم: بما قدَّم مِن ماله لنفسه فتصدَّق به في حياته، وبما أَخَّر منه للوارثِ وزَيْدٍ، أو وَقَفه، أو أوصى به. وقال مجاهد والنخعيُّ: بأوَّل عمله وآخِره.

وأخرج ابنُ جرير عنِ ابنِ عباس: بما قدَّم من المعصية وأخَّر من الطاعة. وأخرج نحوه عن قتادة(١)، وعبد بنُ حميد نحوَه أيضاً عن عكرمة(٢)، وعليه فالظاهر أنَّه عنى بالإنسان الفاجرَ.

وفَصل هذه الجملة عمَّا قبلها؛ لاستقلال كلٍّ منها ومن قولِه تعالى: «يقول» إلخ في الكشف عن شدَّة الأمر أو عن سوء حال الإنسان.

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ أي: حجَّة بيِّنة واضحة على نفسه شاهدة بما صَدَرَ عنه مِن الأعمال السيِّئة كما يُؤذِن به كلمةُ «على» والجملة الحاليَّة بَعْدُ، فـ «الإنسان» مبتدأ، و«على نفسه» متعلِّق بـ «بصيرة» بتقدير الأعمال، أو المعنى عليه من غير تقدير، و«بصيرة» خبر، وهي مجاز عن الحجَّة البيِّنة الواضحة، أو بمعنى بيِّنة، وهي صفة لحجَّة مقدَّرة هي الخبر، وجعل الحجَّة بصيرة؛ لأنَّ صاحبها بصيرٌ بها، فالإسناد مجازيٌّ، أو هي بمعنى دالَّة مجازاً، وجوّز أن يكون هناك استعارة مكنيَّة وتخييليَّة. والتأنيث للمبالغة أو لتأنيث الموصوف، أعني: حجَّة. وقيل: ذلك لإرادة الجوارح، أي: جوارحه على نفسه بصيرة، أي: شاهدة، ونُسِبَ إلى القُتَبيِّ(٣). وجوّز أن يكون التقدير: عينٌ بصيرةٌ، وإليه ذهب الفرَّاء وأنشد:

كأنَّ على ذي العقل عيناً بَصيرةً ... بمَجْلِسه أو مَنْظَرٍ هو ناظِرُهْ
يُحاذِرُ حتى يحسبَ الناسَ كلَّهُمُ ... من الخوف لا يَخْفَى عليهم سرائِرُهْ(٤)

وعليه، قيل: «الإنسان» مبتدأ أوَّل، و«بصيرة» بتقدير: عينٌ بصيرةٌ مبتدأ ثانٍ،

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٤٩٠.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٨٨.

(٣) غريب القرآن ص٥٠٠.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١١، والبيتان للفرزدق وهما في ديوانه ١/ ٢٠٩، وورد في الديوان: الظِّنْء، بدل: العقل. وفي معاني القرآن: الظَّن. والظِّنْء: الريبة. القاموس (الظِّنْءُ).

و«على نفسه» خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر المبتدأ الأوَّل، واختار أبو حيَّان[1] أن تكون «بصيرة» فاعلاً بالجارِّ والمجرور وهو الخبر عن «الإنسان»، وعَمِلَ بالفاعل لاعتماده على ذلك، وأمر التأنيث ظاهر. و«بل» للترقِّي على الوجهين: إرادة حجَّة بصيرة، وإرادة عين بصيرة، والمعنى عليهما: يُنبَّأ الإنسان بأعماله، بل فيه ما يجزي عن الإنباء؛ لأنَّه عالم بتفاصيل أحواله، شاهدٌ على نفسه بما عملت، لأنَّ جوارحه تَنطقُ بذلك: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] وفي كلا الوجهين ـ كما قيل ـ شائبة التجريد، وهي في الثاني أظهر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ ـ أي: ولو جاء بكلِّ معذرة يُمكن أن يعتذر بها عن نفسه ـ حالٌ مِن المستكنِّ في «بصيرة»، أو مِن مرفوعِ «ينبَّأ» أي: هو على نفسه حجَّة، وهو شاهد عليها ولو أتى بكلِّ عذر في الذَّبِّ عنها، ففيه تنبيه على أنَّ الذَّبَّ لا رواجَ له. أو: ينبَّأ بأعماله ويُجازَى ويُعاقَب لا محالةَ، ولو أتى بكلِّ عذر، فهو تأكيد لما يُفهَم مِن مجموع قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إلخ.

والمعاذير: جمع معذرة بمعنى العُذْر، على خلاف القياس، والقياس: مَعَاذِر، بغير ياء، وأطلق عليه الزمخشريُّ[2]: اسمَ الجمع، كعادته في إطلاق ذلك على الجموع المخالفة للقياس، وإلا فهو ليس مِن أبنية اسمِ الجمع. وقال صاحب «الفرائد»: يمكن أن يُقال: الأصل فيه معاذر، فحصلت الياء مِن إشباع الكسرة. وهو كما ترى.

أو: جمع مِعْذار على القياس، وهو بمعنى العذر. وتعقّب بأنَّه بهذا المعنى لم يُسمع مِن الثقات، نعم قال السُّدِّيُّ والضَّحَّاك: المعاذير: الستور بلغة اليَمَن، واحدها: معذار. وحكي ذلك عن الزجَّاج[3]، أي: ولو أرخى ستورَه، والمعنى أنَّ احتجابه في الدنيا واستتاره لا يُغني عنه شيئاً؛ لأنَّ عليه مِن نفسه بصيرة، وفيه تلويح إلى معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية [فصلت:»]، وقيل:

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٨٦.

(٢) الكشاف ٤/ ١٩١.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٢٥٣.

البصيرة عليه الكاتبان يَكتبان ما يكون مِن خير أو شرٍّ، فالمعنى: بل الإنسان عليه كاتبان يَكتبان أعماله ولو تَستَّر بالستور، ولا يكون في الكلام على هذا شائبة تجريد كما تقدَّم.

والإلقاء على إرادة الستور ظاهر، وأمَّا على إرادة الأعذار، فقيل: شبَّه المجيءَ بالعذر بإلقاء الدلو في البئر للاستقاء به، فيكون فيه تشبيهُ ما يراد بذلك بالماء المُرْوي للعَطَش، ويشير إلى هذا قول السُّدِّيِّ في ذلك: ولو أدلى بحجَّة وعُذر. وقيل: المعنى: ولو رمى بأعذاره وطَرَحها واستسلم. وقيل: ولو أحال بعضُهم على بعضٍ، كما يقول بعضهم لبعض: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١].

و«لو» على جميع هذه الأقوال إمَّا أن يكون معنى الشرطيَّةِ منسلخاً عنها ـ كما قيل ـ فلا جوابَ لها، وإمَّا أن يكون باقياً فيها، فالجواب محذوف يدلُّ عليه ما قَبْلُ، واستظهر الخفاجيُّ الأوَّل(١).

وفي الآية على بعض وجوهها دليلٌ ـ كما قال ابنُ العربي(٢) ـ على قَبول إقرار المرء على نفسه، وعدم قبول الرجوع عنه، والله تعالى أعلم.

أخرج الإمام أحمد والبخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ وعبد بن حميد والطبرانيُّ وأبو نُعيم والبيهقيُّ معاً في «الدلائل» وجماعةٌ عن ابنِ عباس قال: كان رسولُ الله ﷺ يُعالج مِن التنزيل شدَّة، فكان يُحرِّك به لسانه وشفتَيْه مخافةَ أن ينفلت منه يريد أن يَحفظه، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ إلخ، فكان رسولُ الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام أَطْرَقَ ـ وفي لفظ: استَمَع ـ فإذا ذهب قَرأه كما وعد اللهُ عزَّ وجلَّ(٣). فالخطاب في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ للنبيِّ ﷺ، والضمير للقرآن؛ لدلالة سياق الآية نحو: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٨٣.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٧٨، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الإكليل ص٢٧٨.

(٣) أحمد (٣١٩١)، والبخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨)، والترمذي (٣٣٢٩)، والنسائي في المجتبى ٢/ ١٤٩، والطبراني في الكبير (١٢٢٩٧)، والبيهقي في الدلائل ٧/ ٥٦، ولم نقف عليه في الدلائل لأبي نعيم.

﴿ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] أي: لا تُحرِّك بالقرآن لسانَك عند إلقاء الوحي مِن قبل أن يُقْضَى إليك وحيه ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ أي: لتأخذه على عجلة مخافةَ أن ينفلتَ منكَ على ما يقتضيه كلام الحبر، وقيل: لمزيد حبِّك له وحرصك على أداء الرسالة، وروي عن الشعبي، ولا ينافي ما ذكر، والباء عليهما للتعدية.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في صدرك بحيث لا يذهب عليك شيء مِن معانيه ﴿وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أي: إثبات قراءته في لسانك، بحيث تقرأه متى شئت، فالقرآن هنا وكذا فيما بعدُ مصدرٌ ـ كالرُّجْحان ـ بمعنى القراءة، كما في قوله:

ضَحَّوْا بأشمَطَ عُنوانُ السجودِ به ... يُقطِّع الليلَ تسبيحاً وقُرآنا[1]

مضاف إلى المفعول، وثَمَّ مضاف مقدَّر.

وقيل: «قرآنه» أي: تأليفه، والمعنى: إنَّ علينا جمعه ـ أي: حِفْظَه في حياتك ـ وتأليفه على لسانِك. وقيل: «قرآنه»: تأليفه وجمعه على أنَّه مصدر قَرَأت، أي: جمعت، ومنه قولهم للمرأة التي لم تلد: ما قَرَأت سَلًى قطُّ، وقول عمرو بنِ كلثوم:

ذِرَاعَيْ بَكْرةٍ أدماءَ بِكْرٍ ... هجانِ اللونِ لم تَقْرأ جَنينا[2]

ويُراد مِن جمعه الأوَّل جمعه في نفسه ووجوده الخارجي، ومِن «قرآنه» بهذا المعنى جمعُه في ذهنه ﷺ، وكلا القولين لا يَخفى حالُهما وإن نسب الأوَّل إلى مجاهد.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: أتممنا قِرَاءته عليك بلسان جبريلَ عليه السلام المبلِّغ عنَّا، فالإسناد مجازيٌّ، وفي ذلك مع اختيار نون العظمة مبالغةٌ في إيجاب التأنِّي.

(١) البيت لحسان بن ثابت يصف عثمان ﷺ، وهو في ديوانه ص٤٦٩. وقوله: الأشمط، يعني المختلط سواد شعره ببياض.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٧٨، والبحر ٨/ ٣٨٧ والكلام منه، وهذه رواية أبي عبيدة للبيت كما ذكر النحاس في شرح المعلقات ٢/ ٩٣، والتبريزي في شرح المعلقات ص٢٥٩، وذكراه برواية:

ذراعي عَيْطَلٍ أدماء بكر ... تربَّعت الأجارع والمتونا

والأدماء: البيضاء من الإبل. والبكرة من الإبل: التي وضعت بطناً واحداً.

﴿فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾ فكن مقفياً له لا مبارياً. وقيل: أي: فإذا قرأناه فاتَّبع بذهنِك وفِكْرك قرآنه، أي: فاستمع وأنصِت، وصحَّ هذا من رواية الشيخين وغيرهما عن ابنِ عباس(١). وعنه أيضاً وعن قتادة والضَّحَّاك: أي: فاتَّبع في الأوامر والنواهي قرآنَه. وقيل: اتبَّع قرآنه بالدَّرْس، على معنى: كرِّره حتى يرسخَ في ذهنك.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ أي: بيان ما أَشكل عليكَ مِن معانيه وأحكامه، على ما قيل، واستدلَّ به القاضي أبو الطَّيِّب ومَن تابعه على جواز تأخير البيانِ عن وقت الخطابِ؛ لمكان «ثم»، وتعقّب بأنَّه يجوز أن يُراد بالبيان الإظهار لا بيان المجمَل، وقد صحَّ من رواية الشيخين وجماعةٍ عن الحبر أنَّه قال في ذلك: ثم إنَّ علينا أن نبيِّنه بلسانك(٢)، وفي لفظ: علينا أن تقرأه(٣)، ويؤيِّد ذلك أنَّ المرادَ بيانُ جميع القرآن، والمجمَلُ بعضُه.

﴿كَلَّا﴾ إرشادٌ لرسوله ﷺ وأَخذٌ به عن عادة العَجَلة وترغيبٌ له عليه الصلاة والسلام في الأَناة، وبالغ سبحانه في ذلك ـ لمزيدِ حبِّه إيَّاه ـ باتْباعه ـ بقوله تعالى: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝٢١﴾ على تعميم الخطاب للكلِّ، كأنَّه قيل: بل أنتم يا بني آدمَ لمَّا خُلقتم مِن عَجَل وجُبلتم عليه، تَعجلون في كلِّ شيء، ولذا تحبُّون العاجلة وتذرونَ الآخرةَ، ويتضمَّن استعجالَك؛ لأنَّ عادةَ بني آدمَ الاستعجال ومحبَّة العاجلة، وفيه أيضاً أنَّ الإنسان وإن كان مجبولاً على ذلك إلا أنَّ مَثَله عليه الصلاة والسلام ممَّن هو في أعلى منصب النبوَّة لا ينبغي أن يستفزَّه مقتضى الطباع البشريَّة، وأنَّه إذا نُهيَ ﷺ عن العَجَلة في طلب العلم والهدى، فهؤلاء ـ ودينهم حبُّ العاجلة وطَلَب الرَّدَى ـ كأنَّهم نُزِّلوا منزلةَ مَن لا ينجعُ فيهم النهي، فإنَّما يعاتب الأديم ذو البشرة، ومنه يُعلَم أنَّ هذا متَّصل بقوله سبحانه: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾ فإنَّه ملوِّح إلى معنى: «بل تحبون» إلخ، وقوله عزَّ وجلَّ: «لا تُحرِّك» إلخ متوسِّط بين حُبَّي العاجلة، حبِّها الذي تضمَّنه «بل

(١) صحيح البخاري (٥)، وصحيح مسلم (٤٤٨).
(٢) البخاري (٤٩٢٨)، ومسلم (٤٤٨): (١٤٧).
(٣) البخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨): (١٤٨).

يريد» تلويحاً، وحبّها الذي أذن به «بل تحبُّون» تصريحاً، لحُسْن التخلُّص منه إلى المفاجأة والتصريح، ففي ذلك تدرُّج ومبالغة في التقريع، والتدرُّج وإن كان يحصل لو لم يُؤتَ بقوله سبحانه: «لا تُحرِّك» إلخ، في البين أيضاً، إلا أنَّه يلزم حينئذٍ فوات المبالغة في التقريع، وأنَّه إذا لم تَجُزِ العَجَلة في القرآن وهو شفاء ورحمة، فكيف فيما هو فجور وثُبور؟! ويزول ما أشير إليه من الفوائد، فهو استطراد يؤدِّي مؤدَّى الاعتراض وأبلغ، وأَطْلَق بعضُهم عليه الاعتراض.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ومجاهد والحسن وقتادة والجحدريُّ: «يحبُّون» و«يذرون» بياء الغيبة فيهما[1]، وأَمرُ الربط عليها كما تقدَّم، وهي أبلغ من حيث إنَّ فيها التفاتاً وإخراجاً له عليه الصلاة والسلام مِن صريح الخطاب بحبِّ العاجلة مضمَّناً طرفاً مِن التوبيخ على سبيل الرَّمْزِ لطفاً منه تعالى شأنُه في شأنِه ﷺ، وأمَّا القراءةُ بالتاء ففيها تغليبُ المخاطَب والالتفات، وهو عكس الأوَّل.

هذا خلاصةُ ما رمز إليه جارُ الله[2] على ما أفيد، وقد اندفعَ به قولُ بعضِ الزنادقة وشِرْذِمةٍ مِن قدماء الرافضة أنَّه لا وجهَ لوقوع: «لاتُحرِّك به لسانك» إلخ في أثناء أمور الآخرة، ولا رَبْطَ في ذلك بوجهٍ من الوجوه، وجعلوا ذلك دليلاً لما زعموه مِن أنَّ القرآن قد غيِّر وبُدِّل، وزِيْدَ فيه ونقص منه، وللعلماء حماةِ المسلمين وشُهُب سماء الدين في دَفْعِ كلامِ ذلك كثيرٌ، منه ما تقدَّم، وللإمام[3] أوجه فيه، منها الحسن، ومنها ما ليس كذلك بالمرَّة. وقال الطيبيُّ: إنَّ قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾ متَّصل بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ۝١٥﴾ أي: يقال للإنسان عند إلقاء معاذيره: كلَّا، إنَّ أعذاركَ غيرُ مسموعة، فإنَّك فجرتَ وفسقتَ وظننتَ أنَّك تدوم على فجورك، وأن لا حشرَ ولا حسابَ ولا عقابَ، وذلك مِن حبِّك العاجلةَ والإعراض عن الآخِرة، وكان من عادة الرسول ﷺ أنَّه إذا لُقِّنَ القرآنَ أن

(١) التيسير ص ٢١٧، والنشر ٢/ ٣٩٣ عن ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب، والكلام من البحر ٨/ ٣٨٨.

(٢) الكشاف ٤/ ١٩٢.

(٣) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٢٢ وما بعدها.

ينازع جبريلَ عليه السلام القراءةَ، وقد اتَّفق عند التلقين للآيات السابقة ما جرت به عادتُه من العَجَلة، فلمَّا وصل إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ أوحي إلى جبريل عليه السلام بأنْ يُلقي إليه عليه الصلاة والسلام ما يُرشِده إلى أَخْذِ القرآن على أكمل وجه، فألقى تلك الجملَ على سبيل الاستطراد، ثم عاد إلى تمام ما كان فيه بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ﴾ إلخ، مثاله الشيخ إذا كان يُلقِّن تلميذَه درساً، أو يُلقي إليه فصلاً، ورآه في أثناء ذلك يَعجَل ويَضْطَرب، يقول له: لا تَعجَل ولا تَضْطَرب، فإنِّي إذ فرغت إن كان لك إشكال أُزيله، أو كنت تَخاف فوتاً فأنا أحفِّظكه، ثم يأخذ الشيخ في كلامه ويتمِّمه. انتهى. فما في البينِ مناسبٌ لِمَا وقع في الخارج دون المعنى الموحى به، وخصَّه بعضهم لهذا بالاستطراد، وأطلق آخر عليه الاعتراض بالمعنى اللغويِّ. وهذا عندي بعيدٌ لم يتَّفق مِثْله في النظم الجليل، ولا دَليلَ لمن يَراه على وقوع العجلة في أثناء هذه الآيات سوى خفاءِ المناسبة.

وقال أبو حيَّان: يظهر أنَّ المناسبةَ بين هذه الآية وما قبلها أنَّه سبحانه لمَّا ذَكَر مُنكِر القيامةِ والبعثِ مُعرِضاً عن آياتِ الله تعالى ومعجزاتِه، وأنَّه قاصرٌ شهواته على الفجور غير مُكترِث بما يصدر منه، ذَكَر حالَ مَن يُثابر على تعلُّم آياتِ الله تعالى وحِفْظِها وتلقُّفها[1] والنظرِ فيها وعَرْضها على مَن يُنكِرها رجاءَ قبوله إيَّاها، ليظهرَ بذلك تباين مَن يرغب في تحصيل آياتِ الله تعالى ومَن يرغب عنها:

وبِـضـدِّهـا تـتـبـيَّـن الأشـيـاءُ[2]

انتهى. وفيه أنَّ هذا إنَّما يَحسُن بعد تمام ما يتعلَّق بذلك المُنكر، والظاهر أنَّ «لا تُحرِّك» إلخ وقع في البين.

وقال القَفَّال: قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ إلخ خطاب للإنسان المذكور في قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَٰنُ﴾ وذلك حالَ إنبائه بقبائح أفعالِه، يُعرَضُ عليه كتابُه، فيقال له:

---

(١) في (م): وتلقنها.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٨٨، والبيت للمتنبي، وهو في ديوانه ١/ ١٤٩، وصدره:

ونـذيـمـهـم وبـهـم عـرفـنـا فـضـلـه.

وذامه كذمَّه، والمعنى: ونحن نذمُّ اللئام ولولاهم ما عرفنا فضله... إلخ.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] فإذا أخذ في القراءة تَلَجْلَج لسانُه مِن شدَّة الخوف وسرعةِ القراءة، فقيل له: «لا تُحرِّك به لسانَك لتعجلَ به» فإنَّه يجب علينا بحكم الوَعْد أو بحكم الحِكمة أن نجمعَ أعمالَك وأن نَقرأَها عليك، فإذا قَرَأْناه عليك فاتَّبع قراءته بالإقرار بأنَّك فعلتَ تلك الأفعال، أو التأمُّلِ فيه، «ثم إنَّ علينا بيانه» أي: بيان أمرِه وشرح عقوبته. والحاصل على هذا أنَّه تعالى يُوقِفُ الكافرَ على جميع أعماله على التفصيل، وفيه أشدُّ الوعيد في الدنيا والتهويل في الآخِرة. انتهى.

فضمير «به» وكذا الضمائر بَعْدَه للكتاب المشعِر به قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ وكذا قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ على قول مَن يُفسِّرُ البصيرة بالكاتبين(١)، ولعلَّ الجملة على هذا الوجه في موضع الحال مِن مرفوع «ينبَّأ» بتقدير القول، كأنَّه قيل: «ينبَّأ الإنسان يومئذٍ» عند أَخْذِ كتابه «بما قدَّم وأخَّر» مقولاً له: «لا تُحرِّك به لسانَك» إلخ، فالربط عليه ظاهر جدّاً، ومِن هنا اختاره البلخيُّ ومَن تبعه، لكنَّه مخالف للصحيح المأثور الذي عليه الجمهور مِن أنَّ ذلك خطابٌ له ﷺ.

والظاهر أنَّ التحريكَ قبل النهي إنَّما صدر منه عليه الصلاة والسلام بحُكم الإباحة الأصليَّة فلا يتمُّ احتجاجُ مَن جوَّز الذنبَ على الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية.

وقال الإمام: لعلَّ ذلك الاستعجال إن كان مأذوناً فيه عليه الصلاة والسلام إلى وقت النهي(٢). وكأنَّه أراد بالإذن الإذنَ الصريح المخصوص، وفيه بُعدٌ مَّا.

وعن الضَّحَّاك أنَّ النبيَّ ﷺ كان يخاف أن ينسى القرآنَ فكان يَدرسه حتى غلبَ ذلك وشقَّ عليه، فنزل: «لا تُحرِّك به» إلخ(٣). وليس بالثبت، ولعلَّ ظاهرَ الآية لا يُساعده.

---

(١) تحرفت العبارة في (م) إلى: على قول من تفسير البصيرة بالكتابين.

(٢) في التفسير الكبير ٣٠/ ٢٢٤: لعل ذلك الاستعجال كان مأذوناً فيه إلى وقت النهي عنه.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٨٧.

ثم إنَّه ربَّما يُتخيَّل في الآية وجهٌ غيرُ ما ذكر عن القفَّال الربطُ عليه ظاهر أيضاً، وهو أنَّه يكون الخطابُ في «لا تُحرِّك» إلخ لسيِّد المخاطَبِيْن حقيقةً، أو مِن باب: إيَّاكِ أعني واسْمَعي، أو لكلِّ مَن يَصلُح له، وضمير «به» ونظائره ليوم القيامة، والجملة اعتراضٌ جِيْءَ به لتأكيد تهويله وتفظيعه مع تقاضي السباق له، فكأنَّه لمَّا ذَكَر سبحانه ممَّا يتعلَّق بذلك اليوم الذي افتتحت السورة بإعظامه ما يتعلَّق، قوَّى داعي السؤال عن توقيته، وأنَّه متى يكون، وفي أيِّ وقت يبين، لا سيَّما وقد استشعر أنَّ السؤالَ عن ذلك إذا لم يكن استهزاء ممَّا لا بأس به، فقيل: «لا تُحرِّك به» أي: بطلب توقيته «لسانَك»، وهو نهي عن السؤال على أتمِّ وجه، كما يقال: لا تَفْتَح فمَك في أمر فلانٍ، «لتعجل به» لتحصِّل علمه على عجلة «إنَّ علينا جمعه» ما يكون فيه مِن الجمع «وقرآنه» ما يتضمَّن شرحَ أحواله وأهواله مِن القرآن، «فإذا قرأناه» قرأنا ما يتعلَّق به «فاتَّبع قرآنه» بالعمل بما يقتضيه مِن الاستعداد له، ثم «إنَّ علينا بيانه» إظهاره وقوعاً بالنَّفْخ في الصُّور وهو الطامَّةُ الكُبْرى.

وحاصله: لا تسأل عن توقيت ذلك اليوم العظيم مستعجلاً معرفةَ ذلك، فإنَّ الواجبَ علينا حكمةً حَشْرُ الجمع فيه، وإنزالُ قرآنٍ يتضمَّن بيانَ أحواله ليُستعدَّ له، وإظهاره بالوقوع الذي هو الداهية العظمى، وما عدا ذلك مِن تعيين وقته فلا يجبُ علينا حكمةً، بل هو منافٍ للحكمة، فإذا سألت فقد سألت ما ينافيها، فلا تجاب. انتهى. وفيه ما فيه، وما كنتُ أذكُره لولا هذا التنبيه.

واللائق بجزالة التنزيل ولطيفِ إشارته ما أشار إليه ذو اليد الطولى جارُ الله ـ تجاوز الله تعالى عن تقصيراته ـ فتأمَّل، فلا حَجْر على فَضْل اللهِ عزَّ وجلَّ.

ولمَّا ردع سبحانه عن حبِّ العاجلة وتَرْك الآخِرة، عقَّب ذلك بما يتضمَّن تأكيدَ هذا الردع ممَّا يشيرُ إلى حُسْن عاقبة حبِّ الآخِرة وسوء مغبَّة العاجلة، فقال عزَّ مِن قائل:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ أي: وجوه كثيرة ـ وهي وجوه المؤمنين المُخلصين يومَ إذ تقوم القيامة بهيَّةٌ متهلِّلةٌ مِن عظيم المسرَّة يُشاهَدُ عليها نضرةُ النعيم، على أنَّ

«وجوه» مبتدأ، و«ناضرة» خبره، و«يومئذٍ» منصوب بـ «ناضرة»، و«ناظرة» في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ خبرٌ ثانٍ للمبتدأ، أو نعت لـ «ناضرة»، و«إلى ربِّها» متعلِّق بـ «ناظرة».

وصحَّ وقوعُ النكرة مبتدأ؛ لأنَّ الموضعَ موضع تفصيل، كما في قوله:

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ... ويومٌ نُساء ويومٌ نُسَرّ(١)

لا على أنَّ النكرةَ تخصَّصت بـ «يومئذ» كما زعم ابنُ عطيَّة(٢)؛ لأنَّ ظرف الزمان لا يكون صفةً للجثث، ولا على أنَّ «ناضرة» صفة لها والخبر «ناظرة» كما قيل، لِمَا أنَّ المشهورَ الغالب كونُ الصفة معلومةَ الانتساب إلى الموصوف عند السامع، وثبوتُ النَّضْرة للوجوه ليس كذلك، فحقُّه أن يُخبر به، نعم ذَكَر هذا غير واحد احتمالاً في الآية، وقال فيه أبو حيَّان: هو قولٌ سائغ(٣).

ومعنى كونها ناظرة إلى ربها أنَّها تَراه تعالى مستغرقةً في مطالعة جماله بحيث تَغفُل عمَّا سواه، وتشاهده تعالى على ما يليقُ بذاته سبحانه، ولا حَجْرَ على الله عزَّ وجلَّ، وله جلَّ وعلا التنزُّه الذاتيُّ التامُّ في جميع تجلِّياته.

واعتُرِضَ بأنَّ تقديمَ المعمول - يعني «إلى ربِّها» - يفيد الاختصاص، كما في نظائره في هذه السورة وغيرها، وهو لا يتأتَّى لو حمل ذلك على النظر بالمعنى المذكور؛ ضرورةَ أنَّهم ينظرون إلى غيره تعالى، وحيث كان الاختصاص ثابتاً كان الحمل على ذلك باطلاً. وفيه أنَّ التقديمَ لا يتمحَّض للاختصاص، كيف والموجب مِن رعاية الفاصلة والاهتمام قائمٌ، ثم لو سُلِّم فهو باقٍ بمعنى أنَّ النظر إلى غيره تعالى في جَنْب النظر إليه سبحانه لا يُعَدُّ نظراً، كما قيل في نحو: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢] على أنَّ ذلك ليس في جميع الأحوال، بل في بعضها، وفي ذلك لا التفاتَ إلى ما سواه جلَّ جلاله، فقد أخرج مسلم والترمذيُّ عن صهيبٍ عن

(١) وقع في الأصل و(م): فيوم لنا ويوم علينا، وهو خطأ رواية ووزناً، والبيت أورده سيبويه في الكتاب ١/ ٨٦، والثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص٥٦ ونسباه للنمر بن تولب.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٥.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٨٩.

النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إذا دخل أهل الجنَّة الجنَّة، يقول الله تعالى: تريدونَ شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهَنا، ألم تُدخلنا الجنَّة وتنجِّنا من النار. قال: فيكشف اللهُ تعالى الحجابَ، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم مِن النظر إلى ربِّهم»(١).

وفي حديث جابر ـ وقد رواه ابن ماجه ـ: «فيَنظرُ إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتونَ إلى شيءٍ مِن النعيم ما داموا ينظرونَ إليه حتى يحتجب عنهم»(٢)، ومن هنا قيل:

فيَنْسَون النعيمَ إذا رَأَوْه فيا خُسْرانَ أهلِ الاعتزال(٣)

وكثيراً ما يحصل نحو ذلك للعارفين في هذه النشأة، فيستغرقونَ في بحار الحبِّ وتستولي على قلوبهم أنوارُ الكشف، فلا يلتفتونَ إلى شيءٍ مِن جميع الكون:

فلما استبانَ الصبحُ أدرج ضوءُه بإسفاره أنوارَ ضوءِ الكواكب(٤)

وقيل: الكلام على حذف مضاف، أي: إلى مِلْك أو رحمةِ أو ثواب ربِّها ناظرة، والنظر على معناه المعروف، أو على حذف مضاف، والنظر بمعنى الانتظار، فقد جاء لغة بهذا المعنى، أي: إلى إنعام ربِّها منتظرة، وتعقّب بأنَّ الحذفَ خلافُ الظاهر، وما زعموا من الداعي مردودٌ في محلِّه، وبأنَّ النظر بمعنى الانتظار لا يتعدَّى بـ «إلى» بل بنفسه، وبأنَّه لا يُسنَد إلى الوجه، فلا يقال: وجهُ زيدٍ منتظر. والمتبادر مِن الإسناد إسنادُ النظر إلى الوجوه الحقيقيَّة، وهو يأبى إرادة الذات مِن الوجه. وتَفصَّى الشريف المرتضى في «الدرر» عن بعض هذا بأنَّ «إلى» اسم بمعنى النعمة، واحد الآلاء، وهو مفعول به لـ «ناظرة» بمعنى منتظِرة، فيكون الانتظار قد تعدَّى بنفسه، وفيه من البُعْد ما فيه.

---

(١) مسلم (١٨١)، والترمذي (٣١٠٥).

(٢) ابن ماجه (١٨٤)، وفي إسناده أبو عاصم عبد الله بن عبيد الله العباداني، وهو منكر الحديث.

(٣) البيت لسراج الدين علي بن عثمان الأُوشي من منظومته المسماة: بدء الأمالي في أصول الدين، وهو البيت الحادي والعشرون، ينظر ضوء المعالي شرح منظومة بدء الأمالي ص٧٢.

(٤) البيت أورده السلمي في طبقات الصوفية ص ٤٤٧، وابن الملقن في طبقات الأولياء ص٣٦٧ في ترجمة أبي العباس القاسم بن القاسم السياري.

والزمخشري[1] إذا تحقَّقت كلامه رأيتَه لم يَدَّعِ أنَّ النظرَ بمعنى الانتظار ليتعقَّب عليه بما تعقَّب، بل أراد أنَّ النظرَ بالمعنى المتعارَف كنايةٌ عن التوقُّع والرجاء، فالمعنى عنده أنَّهم لا يتوقَّعون النعمةَ والكرامة إلا مِن ربِّهم، كما كانوا في الدنيا لا يَخْشون ولا يَرجُون إلا إيَّاه سبحانه وتعالى. ويَرِدُ عليه أنَّه يَرجع إلى إرادة الانتظار لكن كناية، والانتظار لا يساعده المقام إذ لا نعمةَ فيه، وفي مثله قيل: الانتظارُ موتٌ أحمر.

والذي يقطع الشَّغَب ويدقُّ في فروة مَن أخسَّ الطلب ما أخرجه الإمام أحمد والترمذيُّ والدارقطنيُّ وابن جرير وابنُ المنذر والطبرانيُّ والبيهقيُّ وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وغيرهم عن ابنِ عمر رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ أدنى أهلِ الجنَّة منزلةً لمَن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخَدَمه وسُرُرِه مسيرةَ ألف سنة، وأكرمهم على الله مَن يَنظُر إلى وجهه غُدْوةً وعشيَّةً» ثم قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[2]. فهو تفسير منه عليه الصلاة والسلام، ومِن المعلوم أنَّه أعلمُ الأوَّلين والآخِرين لا سيَّما بما أُنزل عليه مِن كلام ربِّ العالمين.

ومِثْلُ هذا فيما ذكر ما أخرجه الدارقطنيُّ والخطيب في «تاريخه» عن أنسٍ: أنَّ النبيَّ ﷺ أقرأَهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ فقال: «والله ما نَسَخها منذ أنزلها، يَزورونَ ربَّهم تبارك وتعالى فيُطعَمون ويُسقَون ويُطيَّبون ويُحَلَّون ويُرفَع الحجابُ بينه وبينهم فينظرون إليه وينظر إليهم عزَّ وجلَّ»[3]. وهذا الحجاب على ما قال السادة مِن قِبَلِهم لا مِن قِبَلِه عزَّ وجلَّ، وأنشدوا:

---

(١) الكشاف ٤/ ١٩٢.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٩٠، وأحمد (٥٣١٧)، والترمذي (٢٥٥٣) و(٣٣٣٠)، والرؤية للدارقطني (١٧١) و(١٧٢)، وتفسير الطبري ٢٣/ ٥٠٩، وعبد بن حميد (٨١٩)، والبعث والنشور (٤٧٧)، وابن أبي شيبة ١٣/ ١١١. قال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٩٢، والدارقطني في الرؤية (٥٥)، وتاريخ بغداد ٣/ ٢٠٠، وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في الموضوعات (١٧١٩) من طريق الدارقطني، وقال: هذا حديث لا يصح.

وَكُنَّا حَسِبْنا أنَّ ليلى تَبَرْقَعَتْ وأنَّ حجاباً دُونها يَمنع اللَّثْما
فَلاحَتْ فلا واللهِ ما ثَمَّ حاجبٌ سوى أنَّ طَرْفي كان عن حُسْنها أعمى[(١)]

ثُمَّ إنَّ أجهلَ الخَلْق عندهم المعتزلة وأشدّهم عمًى وأدناهم منزلةً، حيث أنكروا صحَّة رؤيةِ مَن لا ظاهرَ سواه، بل لا موجودَ على الحقيقة إلا إيَّاه، وأدلَّة إنكارهم صحَّةَ رؤيته تعالى مذكورةٌ مع ردودها في كتب الكلام، وكذا أدلَّة القوم على الصِّحَّة. وكأنِّي بكَ بعد الإحاطة وتدقيقِ النظر تميلُ إلى أنَّه سبحانه وتعالى يُرَى لكن لا مِن حيث ذاته سبحانه البحت، ولا مِن حيث كلُّ تجلٍّ حتى تجلِّيه بنوره الشعشعاني الذي لا يُطاق.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «وجوهٌ يومئذٍ نَضِرَة» بغير ألف[(٢)].

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: شديدة العُبُوس، وباسل أبلغ مِن باسر فيما ذكر، لكنَّه غلب في الشجاع إذا اشتدَّت كُلُوحَتُه، فعدل عنه لإيهامه غيرَ المراد، وعنى بهذه الوجوه وجوه الكفرة.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي: داهيةٌ عظيمة تَقصِمُ فَقَار الظَّهْر، مِن فَقَره: أصابَ فَقَاره. وقال أبو عبيدة: «فاقرة» مِن فَقَرتُ البعيرَ إذا وسمتَ أنفَه بالنار[(٣)].

وفاعل «تظن» ضمير الوجوه بتقدير مضاف، أي: تظنُّ أربابُها، وجوّز أن يكون الضمير راجعاً إليها على أنَّ الوجهَ بمعنى الذات استخداماً، وفيه بُعْدٌ.

والظَّنُّ قيل أُريدَ به اليقينُ، واختاره الطيبيُّ، و«أنْ» المصدريَّة لا تَقعُ بعد فعل التحقيقِ الصرف دون فعل الظَّنِّ أو ما يؤدِّي معنى العلم، فتقع بعده كالمشدَّدة والمخفَّفة، على ما نصَّ عليه الرضي. وقيل: هو على معناه الحقيقي المشهور، والمراد: تتوقَّع ذلك، واختاره مَن اختاره، ولا دلالةَ فيه بواسطة التقابل على أن يكون النظرُ ثَمَّ بالمعنى المذكور، كما زعمه مَن زعمه، وتحقيق ذلك أنَّ ما يُفعَل

---

(١) أوردهما ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٢/ ٨١ ونسبهما لعفيف الدين التلمساني، والبيتان سلفا ١/ ٥٨، لكن ورد فيهما: توهَّمت قِدْماً، بدل: وكنا حسبنا. وهما كما وردا في مجموع الفتاوى.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٨٨.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٧٨بنحوه.

بهم في مقابلة النَّظَر إلى الربِّ سبحانه لكون ذلك غاية النعمة، وهذا غاية النقمة، وجِيْءَ بفعل الظَّنِّ هاهنا دلالةً على أنَّ ما هم فيه وإن كان غاية الشَّرِّ يتوقَّع بعده أشدّ منه، وهكذا أبداً، وذلك لأنَّ المرادَ بالفاقرة ما لا يُكْتَنَه مِن العذاب، فكلّما يُفعَل به مِن أشدِّه، استدلَّ منه على آخَر وتوقَّع أشدَّ منه، وإذا كان ظانًّا كان أشدَّ عليه ممَّا إذا كان عالماً موطِّناً نفسَه على الأمر، على أنَّ العلم بالكائن واقعٌ لا بما يتجدَّد آناً فآناً، فهذا وجه الإتيان بفعل الظَّنِّ، ولم يؤت في المقابل بفعل ظَنَّ أو عَلِمَ؛ لأنَّهم وصلوا إلى ما لا مطلوب وراءه وذاقوه، ثم بعد ذلك التفاوت في ذلك النظر قوَّةً وضعفاً بالنسبة إلى الرائي على ما قرَّروه، فلعلَّ هذا حجَّة على الزاعم لا له، أسبغ اللهُ تعالى علينا برؤيته فَضْلَه.

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن إيثار العاجلة على الآخِرة، كأنَّه قيل: ارْتَدِعوا عن ذلك وتنبَّهوا لِمَا بين أيديكم مِن الموت الذي تنقطعُ عنده ما بينكم وبين العاجلة مِن العلاقة.

﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي: النفسُ أو الروح الدالُّ عليها سياق الكلام كما في قول حاتم:

أَماوِيُّ[1] ما يُغني الثراءُ عن الفتى ... إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدرُ[2]

ونحو قول العرب: أَرْسَلت، يريدون جاءَ المطر، ولا تكاد تسمعهم يقولون: أَرسلت السماءُ، نعم قد يصرَّح فيما هنا بالفاعل، فيقال: بَلَغت النَّفْسُ.

﴿ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦﴾ أي: أعالي الصدر، وهي العظام المكتنفة ثغرةَ النَّحْر عن يمينٍ وشمالٍ، جمع: تَرْقُوة، وأنشدوا لدريد بنِ الصُّمَّة:

وربَّ عظيمةٍ دافعْتَ[3] عنهم ... وقد بَلَغت نُفوسُهُمُ التراقي[4]

﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ۝٢٧﴾ أي: قال مَن حضر صاحبَها: مَن يَرقيه وينجيه ممَّا هو فيه،

---

(١) في هامش الأصل: لعمرك. نسخة.

(٢) ديوان حاتم ص٣٩، والحشرجة: الغرغرة عند الموت وتردُّد النَّفَس. الصحاح (حشرج).

(٣) في (م): رافعت.

(٤) تفسير الرازي ٣٠/ ٢٣٠، وأورده أيضاً ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٤٥٤، والحموي في معجم البلدان ٣/ ٢٥٨، والصفدي في الوافي بالوفيات ١٤/ ١٢ ونسبوه لعمرة بنت دريد بن الصمة قالته في قصيدة لها ترثي بها أباها.

مِن الرُّقْيَة وهي ما يستشفي به الملسوع والمريض من الكلام المعدِّ لذلك، ومنه آيات الشفاء، ولعلَّه أُريدَ به مُطلَقُ الطبيب أعمَّ من أن يطبَّ بالقول أو بالفعل، وروي عن ابنِ عباس والضَّحَّاك وأبو قِلابة وقتادة ما هو ظاهر فيه. والاستفهام عند بعضٍ حقيقيٌّ، وقيل: هو استفهامُ استبعادٍ وإنكار، أي: قد بلغ مبلغاً لا أحدَ يَرقيه، كما يقال عند اليأس: مَن ذا الذي يقدر أن يرقي هذا المُشْرِف على الموت، وروي ذلك عن عكرمة وابنِ زيد.

وقيل: هو مِن كلام ملائكة الموت، أي: أيُّكم يَرقَى بروحه، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ من الرُّقي وهو العُرُوج، وروي هذا عن ابنِ عباس أيضاً وسليمان التيمي، والاستفهام عليه حقيقيٌّ، وتعقّب بأنَّ اعتبارَ ملائكة الرحمة لا[1] يناسب قولَه تعالى بَعْدُ: «فلا صدَّق» إلخ، ودُفعَ بأنَّ الضميرَ للإنسان، والمراد به الجنس، والاقتصار بعد ذلك على أحوال بعضِ الفريقين لا ينافي العموم فيما قَبْلُ.

ووقف حفص رواية عن عاصم على «من» وابتدأ «راق»، وأدغم الجمهور[2]، قال أبو عليٍّ: لا أدري ما وجه قراءتهِ[3]. وكذلك قرأ: «بل ران»[4]، وقال بعضهم: كأنَّه قَصَدَ أنْ لا يُتوهَّم أنَّها كلمة واحدة، فسكت سكتةً لطيفة ليُشعِرَ أنهما كلمتان، وإلا فكان ينبغي أن يُدغم في «من راق»، فقد قال سيبويه: إنَّ النونَ تدغم في الراء وذلك نحو: من راشد، والإدغام بغنَّة وبغير غنَّة[5]. ولم يَذكر الإظهار، ويُمكن أن يقال: لعلَّ الإظهار رأي كوفي، فعاصمٌ شيخُ حفص يذكر أنَّه كان عالماً بالنحو، وأمَّا «بل ران» فقد ذكر سيبويه في ذلك أيضاً أنَّ إظهارَ اللام وإدغامَها مع الراء حسنان[6]، فلعلَّ حفصاً لمَّا أفرَطَ في إظهار الإظهار فيه صار كالوقف القليل.

---

(١) قوله: لا، ساقط من (م)، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ٢٨٤، والكلام منه.
(٢) السبعة ص٦٦١ و٦٧٥، والتيسير ص١٤٢.
(٣) الحجة للقراء السبعة ٦/ ٣٤٦.
(٤) السبعة ص٦٧٥، والتيسير ص١٤٢.
(٥) الكتاب ٤/ ٤٥٢.
(٦) الكتاب ٤/ ٤٥٢، وعبارته فيه: والإدغام أحسن. والكلام من البحر ٨/ ٣٩٠.

واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾ على أنَّ النفسَ جسمٌ لا جوهرٌ مجرَّد، إذ لا يتَّصف بالحركة والتحيُّز، وأجاب بعضٌ بأنَّ هذه النفسَ المسندَ إليها بلوغُ التراقي هي النفسُ الحيوانيَّة لا الروح الأمريَّة وهي الجوهر المجرَّد دون الحيوانيَّة، وآخَرُ بأنَّ المرادَ ببلوغها التراقي قُرْبُ انقطاع التعلُّق، وهو ممَّا يتَّصف به المجرَّد، إذ لا يستدعي حركة ولا تحيُّزاً ولا نحوهما ممَّا يستحيل عليه، وزعم أنَّه لا يمكن إرادةُ الحقيقة ولو كانت النفس جسماً ضرورةَ أنَّ بلوغها التراقي لا يتحقَّق إلا بعد مفارقتها القلب، وحينئذٍ يَحصل الموت، ولا يقال: «مَن رَاق» كما هو ظاهر على الوجه الأوَّل فيه، ولا يتأتَّى أيضاً ما يُذكَر بَعْدُ على ما ستعلمه إن شاء الله تعالى فيه.

والذي عليه جمهور الأمَّة سلفاً وخَلَفاً أنَّ النَّفْسَ - وهي الروح الأمريَّة - جسمٌ لطيف جدًّا ألطف مِن الضوء عند القائل بجسميَّته، والنفس الحيوانيَّة مَرْكَبٌ لها، وهي سارية في البَدَن نحو سريان ماءِ الورد في الورد، والنار في الفحم، وسريانِ السيال الكهربائيِّ، عند القائل به في الأجسام، والأدلَّة على جسميَّتها كثيرةٌ، وقد استوفاها الشيخ ابنُ القيم في كتاب «الروح»[1] وأتى فيه بالعَجَب العجاب.

ثم الظاهر أنَّ المرادَ ببلوغ التراقي مشارفة الموت وقُرْب خروجِ الروح من البَدَن، سَلِمَت الضرورة التي في كلام ذلك الزاعم أم لم تَسْلَم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ أي: وظنَّ الإنسانُ المُحتَضر أنَّ ما نزل به الفِراق مِن حبيبته الدنيا ونعيمِها، وقيل: فراق الروحِ الجسدَ. والظَّنُّ هنا عند أبي حيَّان[2] على بابه، وأكثر المفسِّرين على تفسيره باليقين، قال الإمام: ولعلَّه إنَّما سمِّي اليقين هاهنا بالظَّنِّ؛ لأنَّ الإنسان ما دامت روحُه متعلِّقة ببدنه يَطمع في الحياة لشدَّة حبِّه لهذه الحياة العاجلة، ولا يَنقطع رجاؤه عنها، فلا يحصل له يقينُ الموت بل الظَّنُّ الغالب مع رجاء الحياة، أو لعلَّه سمَّاه بالظَّنِّ على سبيل التَّهكُّم[3].

---

(١) تنظر المسألة الخامسة من كتابه المذكور أعلاه.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٩٠.

(٣) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٣١.

﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩﴾ أي: التفَّتْ ساقُه بساقه والْتَوَتْ عليها عند هَلَع الموت وقلقه[1]، كما روي عن الشعبيِّ وقتادة وأبي مالك. وقال الحسن وابنُ المسيب: هما ساقا الميت عندما لُفَّا في الكفن. وقيل: المراد بالتفافهما انتهاءُ أمرهما وما يُراد فيهما، يعني موتهما. وقيل: يَبَسُهما بالموت وعدم تَحرُّك إحداهما عن الأخرى حتى كأنَّهما ملتفَّتان، فهما أوَّل ما يَخرج الروحُ منه فتبردان قبل سائرِ الأعضاء وتَيبسان، فالساق بمعناهما الحقيقيِّ، و«أل» فيها عهديَّة أو عِوَض عن المضاف إليه.

وقال ابنُ عباس والربيع بنُ أنس وإسماعيل بن أبي خالد وهو روايةٌ عن الحسن أيضاً: التفَّت شدَّة فراقِ الدنيا بشدَّة إقبال الآخِرة واختلطتا. ونحوُه قولُ عطاء: اجتمع عليه شدَّةُ مفارقة المألوف مِن الوطن والأهل والولد والصديق وشدَّةُ القُدوم على ربِّه جلَّ شأنه لا يدري بماذا يَقدمُ عليه، فالساق عبارة عن الشِّدَّة، وهو مَثَل في ذلك، والتعريف للعهد، وأخرج عبد بنُ حميد وابنُ جرير عن الضَّحَّاك: التفَّت أَسْوُقُ حاضريه مِن الإنس والملائكة، هؤلاء يجهِّزون بَدَنه إلى القبر، وهؤلاء يجهِّزون روحه إلى السماء[2]. فكأنَّهم للاختلاف في الذهاب والإياب والتردُّد في الأعمال قد التفَّت أسوقُهم، وهذا الالتفاف على حدِّ اشتباك الأسِنَّة.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝٣٠﴾ أي: إلى الله تعالى وحُكمه سَوْقُه لا إلى غيره، على أنَّ «المساقَ» مصدرٌ ميمي كالمقال، وتقديمُ الخبر للحَصْر، والكلام على تقدير مضاف هو: حكم، وقيل: هو موعد، والمراد به الجنة أو النار، وقيل: ليس هناك مضاف مقدَّر على أنَّ الرَّبَّ جلَّ شأنه هو السائق، أي: سَوْقُ هؤلاء مفوَّض إلى ربِّك لا إلى غيره، والظاهر ما تقدَّم. ثم إن كان هذا في شأن الفاجر أو فيما يعمُّه والبَرَّ، يُراد بالسوق السوقُ المناسب للمسوق، وهذه الآية لعَمْري بشارةٌ لمن حسَّن ظنَّه بربِّه، وعَلِمَ أنَّه الرَّبُّ الذي سبقت رحمتُه على غضبه:

قالوا غداً نأتي ديارَ الحِمَى ... ويَنزلُ الركبُ بمَغْناهُمُ

(١) في (م): وقلبه.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/٥١٧، وينظر الدر المنثور ٦/٢٩٦.

فقلتُ لي ذَنْبٌ فما حيلتي بأيِّ وَجْهٍ أتلقّاهُمُ
قالوا أليسَ العفوُ مِن شأنِهم لا سيَّما عمَّن ترجاهُمُ[1]

ثم إنَّ جواب «إذا» محذوف دلَّ عليه ما ذكر، أي: كان ما كان، أو: انكشفت للمرء حقيقةُ الأمر، أو: وَجَدَ الإنسانُ ما عملَه مِن خير أو شرٍّ.

﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ أي: ما يجب تصديقه مِن الله عزَّ وجلَّ والرسولِ ﷺ والقرآنِ الذي أُنزل عليه ﴿وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ ما فُرضَ عليه، أي: لم يُصدِّق ولم يُصلِّ، ف «لا» داخلة على الماضي كما في قوله:

إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جمَّا وأيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا[2]

والضمير في الفعلين للإنسان المذكور في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، والجملة عطف على قوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾ على ما ذهب إليه الزمخشريُّ[3]، فالمعنى بناءً على ما علمتَ مِن أنَّ السؤالَ سؤالُ استهزاء واستبعادٍ: استَبْعَدَ البعثَ وأنكره، فلم يأتِ بأصل الدين وهو التصديق بما يَجبُ تصديقُه به، ولا بأهمِّ فروعه وهو الصلاة، ثم أكَّد ذلك بذكر ما يُضادّه بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ نفياً لتوهُّم السكوت أو الشَّكِّ، أي: ومع ذلك أظهرَ الجحودَ والتولِّي عن الطاعة.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ يتبختر افتخاراً بذلك، ومَن صَدَرَ عنه مِثْلُ ذلك ينبغي أن يَخافَ مِن حلولِ غضبِ الله تعالى به، فيمشي خائفاً متطامناً لا فَرِحاً متبختراً، ف «ثمَّ» للاستبعاد، و«يتمطَّى» مِن المَطِّ، فإنَّ المتبختر يمدُّ خطاه، فيكون أصله: يَتَمَطَّط، قُلبت الطاء فيه حرفَ علَّة؛ كراهة اجتماع الأمثال، كما قالوا:

---

(١) الأبيات لعَلَم الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي المقرئ النحوي الشافعي، قالها لما حضرته الوفاة، وهي في وفيات الأعيان لابن خلّكان ٣/ ٣٤١، ومعرفة القراء الكبار للذهبي ٣/ ١٢٤٨-١٢٤٩، وشذرات الذهب لابن العماد ٧/ ٣٨٦ عند ترجمته.

(٢) سلف عند تفسير الآية (٧) من سورة غافر.

(٣) الكشاف ٤/ ١٩٣.

تَظَنَّى، مِن الظَّنِّ، وأصله: تَظَنَّن، أو مِن المَطَا وهو الظَّهْرُ، فإنَّ المتبخترَ يلوي مَطَاه تبختراً فيكون معتلًّا بحسب الأصل، وفي الحديث: «إذا مشت أمَّتي المُطَيْطاء، وخَدَمَتْهم فارس والروم، فقد جُعِلَ بأسُهم بينهم، وسُلِّط شرارُهم على خيارهم»(١).

وجعل الطيبيُّ عطفَ هذه الجملة للتعجُّب على معنى: يَسألُ أيَّان يومُ القيامة وما استعدَّ له إلا ما يُوجب دمارَه وهلاكَه؟! وقال: إنَّ قولَه تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ إلخ جوابٌ عن السؤال أُقحم بين المعطوف والمعطوف عليه؛ لشدَّة الاهتمام، وإنَّ قولَه سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ إلخ استطرادٌ على ما سمعتَ، وجَعْلُ «صدَّق» من التصديق هو المرويُّ عن قتادة.

وقال قوم: هو مِن التصدُّق أي: فلا صدَّق مالَه ولا زكَّاه.

قال أبو حيَّان(٢): وهذا الذي يظهر؛ نَفَى عنه الزكاةَ والصلاةَ وأثبتَ له التكذيبَ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٣-٤٦] وحَمْله على نفي التصديق يقتضي أن يكون «ولكنْ كذَّب» تكراراً، ولزم أن يكون استدراكاً بَعْدَ «ولا صلَّى» لا بَعْدَ «فلا صدَّق» لأنَّهما متوافقان. وفيه نظر يُعلم ممَّا قرَّرناه.

ثم إنَّه استبعدَ العطفَ على قوله تعالى: «يسأل» إلخ، وذكر أنَّ الآيَة نزلت في أبي جهل وكادت تُصرِّح به في قوله تعالى: «يتمطَّى» فإنَّها كانت مشيته ومشيةَ قومه بني مخزوم، وكان يُكثِر منها. ولم يبيِّن حالَ العطف على هذا، وأنتَ تعلم أنَّ العطف لا يَأبى حديثَ النزول في أبي جهل، وقد قيل: إنَّ قولَه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ نازلٌ فيه أيضاً، والحكم على الجنس بأحكام لا يضرُّ فيه تعيُّن بعضِ أفراده في حُكمٍ منها، نعم لا شَكَّ في بُعْدِ هذا العطف لفظاً، لكن في بُعْدِه معنًى مقالٌ، ولعلَّ فيما بَعْدُ ما يقوِّي جانبَ العطف على ذاك.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٦١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: حديث غريب. اهـ. وأخرجه أيضاً ابن حبان (٦٧١٦) من حديث خولة بنت قيس رضي الله عنها. وينظر ميزان الاعتدال ٣/ ٥٣٨، وفيض القدير ١/ ٤٤٥، والمُطَيْطاء: مشية فيها تبختر ومدُّ يدين. النهاية (مطط).

(٢) في البحر ٨/ ٣٩٠.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ من الوَلْيِ بمعنى القُرْب، فهو للتفضيل في الأصل غُلِّب في قُرْب الهلاك ودعاءِ السوء، كأنَّه قيل: هلاكاً أولى لكَ، بمعنى: أهلكك اللهُ تعالى هلاكاً أقرب لكَ مِن كلِّ شرٍّ وهلاكٍ، وهذا كما غُلِّب بُعْداً وسُحْقاً في الهلاك، وفي «الصحاح» عن الأصمعي: قَارَبَه ما يُهْلِكُه، أي: نَزَلَ به، وأنشد:

فَعَادَى بينَ هادِيَتَيْنِ منها ... وأَوْلَى أنْ يَزِيدَ على الثَّلاثِ

أي: قارَبَ، ثم قال: قال ثعلب: ولم يَقُلْ أحدٌ في أولى أحسنَ ممَّا قاله الأصمعيُّ(١). وعلى هذا «أَولى» فعلٌ مستترٌ فيه ضمير الهلاك بقرينة السياق، واللام مزيدةٌ على ما قيل، وقيل: هو فعلٌ ماضٍ دعائيٌّ مِن الوَلْيِ أيضاً، إلا أنَّ الفاعلَ ضميره تعالى، واللام مزيدةٌ، أي: أولاك الله تعالى ما تكرهه، أو غير مزيدة، أي: أدنى اللهُ تعالى الهلاكَ لَكَ، وهو قريب ممَّا ذكر عن الأصمعيِّ.

وعن أبي عليٍّ: أنَّ «أولى لَكَ» عَلَم للويل مبنيٌّ على زِنَةِ أفْعَل مِن لفظ الويل على القلب، وأصله: أَوْيَل، وهو غيرُ منصرف؛ للعلميَّة والوزن، فهو مبتدأ، و«لك» خبره. وفيه أنَّ الويلَ غيرُ مُتَصَرِّفٍ فيه، ومثل: يوم أَيْوَم - مع أنَّه غيرُ منقاسٍ - لا يُفرَد عن الموصوف ألبتة، وأنَّ القلبَ على خلاف الأصل لا يرتكب إلا بدليل، وأنَّ عَلَم الجنس شيءٌ خارج عن القياس مُشْكِلُ التعقُّل، خاصَّة فيما نحن فيه.

وقيل: اسمُ فعل مبنيٌّ، ومعناه: وَلِيَكَ شرٌّ بعد شَرٍّ. واختار جمع أنَّه أفعل تفضيل بمعنى الأحسن والأحرى، خبرٌ لمبتدأ محذوف يُقدَّر كما يليق بمقامه، فالتقدير هنا: النارُ أَولى لَكَ - أي: أنتَ أحقُّ بها وأهلٌ لها - فأولى.

﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ تكريرٌ للتأكيد، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك، فتذكَّر.

والظاهر أنَّ الجملةَ تذييلٌ للدعاء لا محلَّ لها من الإعراب، وجوِّز أن تكون في موضع الحال بتقدير القول، كأنَّه قيل: ثم ذهب إلى أهله يتمطَّى، مقولاً له: «أَولى لَكَ» إلخ، ويؤيِّده ما أخرج النسائيُّ والحاكم - وصحَّحه - وعبد بنُ حميد وابنُ جرير

---

(١) الصحاح (ولي)، والبيت سلف عند تفسير الآية (٢٠) من سورة محمد ﷺ.

وابنُ المنذر وغيرهم عن سعيد بنِ جبير قال: سألتُ ابنَ عباس عن قولِ الله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾: أَشيءٌ قاله رسولُ الله ﷺ مِن نفسه، أم أَمَرَه اللهُ تعالى به؟ قال: بل قاله مِن قِبَلِ نفسه، ثم أنزله اللهُ تعالى[1].

واستدلَّ بقوله سبحانه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ إلخ على أنَّ الكفَّار مخاطبونَ بالفروع، فلا تغفل.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ أي: مُهمَلاً، فلا يُكلَّف ولا يُجزَى، وقيل: أن يُترَكَ في قبره، فلا يبعثَ. ويقال: إبلٌ سدًى، أي: مُهمَلةٌ، ترعى حيث شاءت بلا راعٍ، وأسديتُ الشيءَ، أي: أهملته، وأسديت حاجتي: ضيَّعتها ولم أعتنِ بها، قال الشاعر:

فأُقْسِمُ باللهِ جهدَ اليميـ ... ـنِ ما خَلَق اللهُ شيئاً سُدَى[2]

ونصب «سُدًى» على الحال مِن ضمير «يُترَك»، و«أن يُتْرَك» في موضع المفعولين لـ «يحسب»، والاستفهام إنكاريٌّ، وكأنَّ تكريرَه بعد قولِه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ لتكرير إنكار الحَشْر، قيل: مع تضمُّن الكلام الدلالة على وقوعه حيث إنَّ الحكمة تقتضي الأمر بالمحاسن والنهيَ عن القبائح والرذائل، والتكليفُ لا يتحقَّق إلا بمجازاة، وهي قد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخِرة، وجعل بعضُهم هذا استدلالاً عقليًا على وقوع الحشر، وفيه بحث لا يَخفى.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ إلخ، استئنافٌ وارد لإبطال الحسبان المذكور، فإنَّ مدارَه لمَّا كان استبعادَهم للإعادة دفع ذلك ببدء الخَلْق.

وقرأ الحسن: «ألم تَكُ» بتاء الخطاب[3] على سبيل الالتفات، وقرأ الأكثر: «تُمنَى» بالتاء الفوقيَّة، فالضمير للنطفة، أي: يُمْنِيها الرجلُ ويصبُّها في الرَّحِم،

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٩٦، والنسائي في الكبرى (١١٥٧٤)، ومستدرك الحاكم ٢/ ٥١٠، وتفسير الطبري ٢٣/ ٥٢٥، ولم يذكر: ابن عباس في إسناد الطبري، بل أخرجه عن سعيد بن جبير مرسلاً.
(٢) أورده الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٦٠، والقرطبي في التفسير ٢١/ ٤٤١، ولم ينسباه.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٩١.

وعلى قراءة الياء ـ وهي قراءة حفص وأبي عمرٍو بخلاف عنه ويعقوب وسلَّام والجحدريِّ وابنِ محيصن ـ للمَنِيِّ[1].

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي: بقُدرة اللهِ تعالى كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: ١٤] ﴿فَخَلَقَ﴾ أي: فقدَّر اللهُ عزَّ وجلَّ بأن جعلها سبحانه مخلَّقة ﴿فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ فعدَّل وكمَّل ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ أي: مِن الإنسان، وقيل: مِن المَنِيِّ ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ أي: الصنفين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ بدل مِن «الزوجين»، والخنثى لا يَعدُوهما.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «الزوجان» بالألف[2] على لغة بني الحارث بنِ كعب ومَن وافقهم مِن العرب، مِن كون المثنى بالألف في جميع حالاته.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ العظيم الشأنِ الذي أنشأ هذا الإنشاء البديع ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ أي: قادراً. وقرأ زيد: «يَقْدِرُ» مضارعاً[3] ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ وهو أهونُ مِن البدء في قياس العقل.

وقرأ طلحة بنُ سليمان والفياض بنُ غزوان: «على أن يُحْيِيْ» بسكون الياء[4]، وأنتَ تَعلم أنَّ حركتها حركةُ إعراب لا تَنحذفُ إلا في الوقف، وقد جاء في الشعر حذفُها بدونه، وعن بعضهم: «يُحِيَّ» بنقل حركة الياء إلى الحاء وإدغام الياء في الياء، قال ابن خالويه: لا يُجيز أهلُ البصرة سيبويه وأصحابُه إدغامَ «يُحْيِي»، قالوا: لسكون الياء الثانية، ولا يعتدُّون بالفتحة فيها؛ لأنَّها حركةُ إعراب غير لازمة، والفرَّاء أجاز ذلك واحتج بقوله:

تـــمـــشـــي بـــسُـــدَّة فَـــتُـــعِـــيُّ

يريد: فتُعْيا[5]. وبالجملة القراءةُ شاذَّة.

---

(١) التيسير ص٢١٧، والنشر ٢/ ٣٩٤ عن حفص ويعقوب، والكلام من البحر ٨/ ٣٩١.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٩١.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٩١.
(٤) المحتسب ٢/ ٣٤٢، والبحر ٨/ ٣٩١.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٣٩١، وكلام ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٦، وكلام سيبويه في الكتاب ٤/ ٤٠٣، وكلام الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢١٣، والبيت للحطيئة كما في تاج العروس (عيي)، وتمامه:

=

وجاء في عدَّة أخبار أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية، قال: «سبحانَكَ اللَّهمَّ وبَلَى»(١). وفي بعضها: «سبحانَكَ فبَلَى»(٢).

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذيُّ وابن المنذر وابنُ مردويه والبيهقيُّ والحاكم ـ وصحَّحه ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَرَأَ منكم ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾ فانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلكم مِن الشاهدين، ومن قرأ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١﴾ فانتهى إلى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ فليقل: بلى، ومن قَرَأَ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ فبلغ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ فليقل: آمنا بالله»(٣).

= وكأنها بين النساء سبيكة تمشي بسدَّة بيتها فَتُعِيُّ

وذكره أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة ٣/ ٢٥٨، وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٩، قال أبو إسحاق النحوي كما في تهذيب اللغة: هذا غير جائز عند حذَّاق النحويين. وذكر أن البيت الذي استشهد به الفرَّاء ليس بمعروف. وعقَّب عليه الأزهري بقوله: والقياس ما قال أبو إسحاق وكلام العرب عليه.

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٩٦، ونسبه لابن مردويه من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (٨٨٤)، والبيهقي في سننه ٢/ ٣١٠، عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ قال: سبحانك، فبلى. فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ. وموسى هذا لم يروِ عن الصحابة، وإنما روايته عن التابعين.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٩٦، وأحمد (٧٣٩١)، وأبو داود (٨٨٧)، والترمذي (٣٣٤٧)، والبيهقي ٢/ ٣١٠-٣١١، والحاكم ٢/ ٥١٠.